الدكتور فرج توفيق زخّور

قصّة الأقباط



وجه امرأة في نسيج قبطي (القرن التاسع للميلاد)

جروس برس



قِصَّةُ الأَقْبَاط



قِصَّةُ الأَقبَاط

تأليف

الدكتور فرج توفيق زخور



جروس برس
طرابلس - لبنان

الطبعة الأولى
١٩٩٣

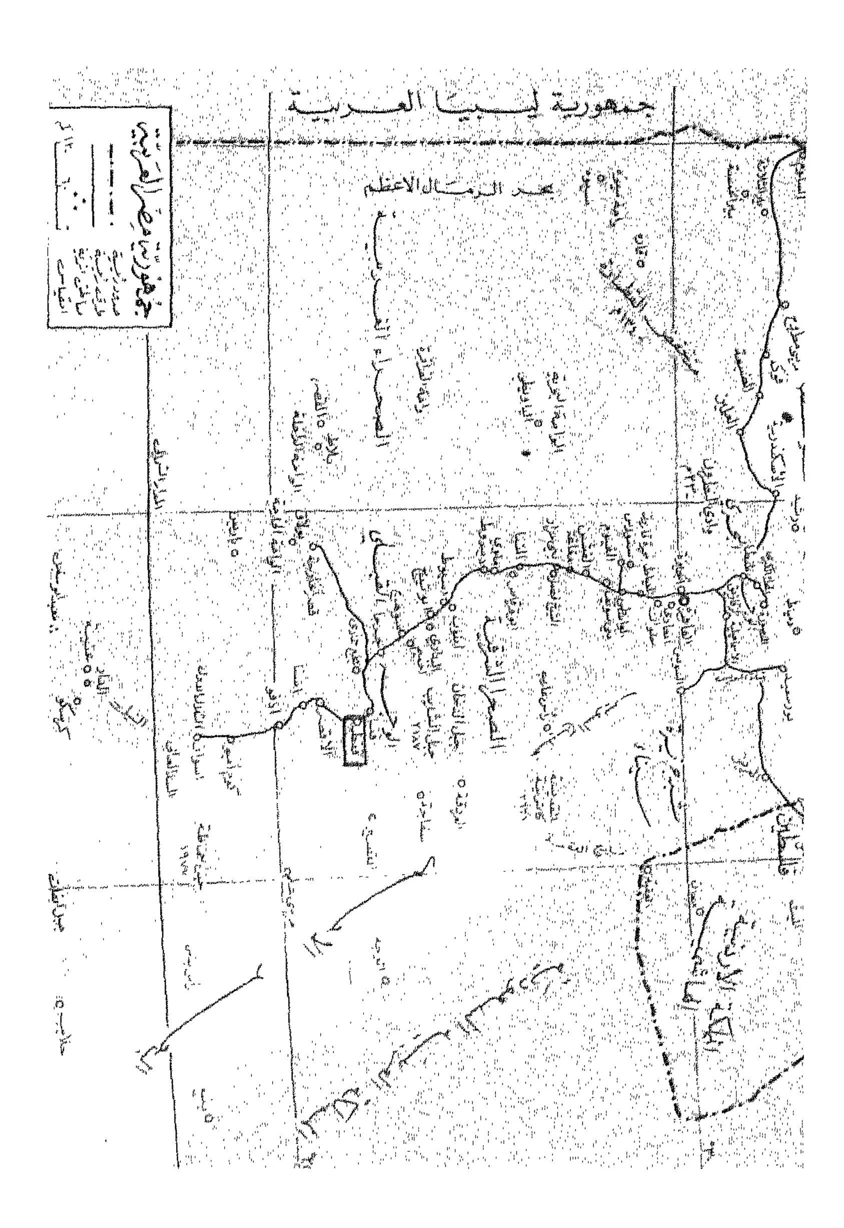
جروس برس - طرابلس - لبنان
هاتف دولي وفاكس ٧٩٠ ٧٨٢ ١٢٤ ١٢ ٠٠

الإهداء

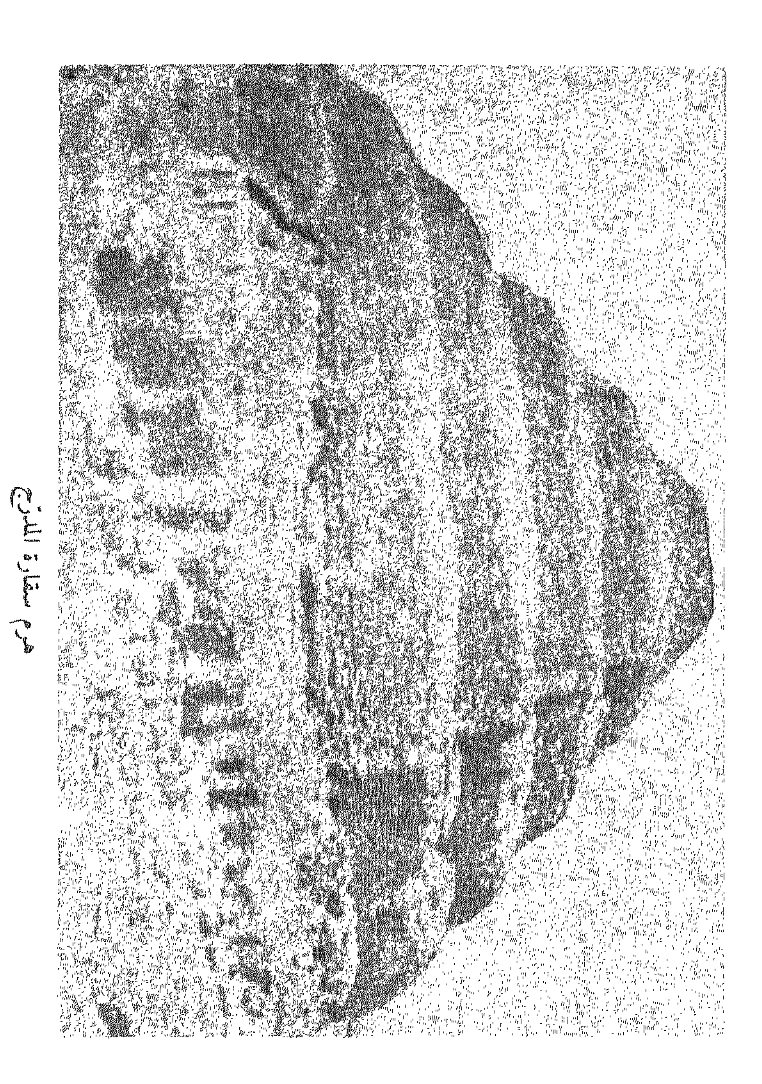
إلى كل من وعى أخطار الحروب الاهلية الداخلية
على الوطن والمصير...

إلى اولئك الذين لم يقبلوا يوماً أن يكونوا أقلية إثنية
أو طائفية ترتبط بمصالح هذه الدولة الاجنبية أو تلك...

أهدي كتابي...


جمهورية ليبيا العربية
بحر الرمال الأعظم
جمهورية مصر العربية

مصر



هرم سقارة المدرج



المقدمة

«قتل الاقباط» عنوان مقالة في جريدة النهار البيروتية بتاريخ ١٩ كانون الاول ١٩٩٢، للمطران جورج خضر، مطران جبل لبنان للطائفة الارثوذكسية، فيها: «إن من أباد المسيحيين في أي مكان من العالم قتل نفس المسيح... وان الاقباط في مصر يجب ان تبقى لهم حريتهم وانهم يستحقون الحياة...».

وفي صعيد مصر مجزرة بحق الاقباط، كما في البوسنة مجزرة بحق المسلمين. ولأنهم استنكروا مذابح البوسنة، توجه سيادته إلى مسلمي لبنان، وطالبهم بأن يستنكروا أيضاً قتل الاقباط في مصر، «أنا أرجو أن يرتفع صوت اسلامي في لبنان لإدانة هذه المذبحة...».

ويأتيه صوت سماحة مفتي طرابلس الشيخ طه الصابونجي في النهار ٩٢/١٢/٢٣، مستنكراً الاعتداء على الاقباط وسواهم، معتبراً أحداث مصر ليس عدواناً على الاقباط فحسب، انما على مصر وأمنها وكيانها، يقول: «... فمن ذا الذي فكر أو يفكر في إيذاء الاقباط أو سواهم الاّ الجهول بالاسلام، والخوؤن لرسالته وحضارته؟ ومن ذا الذي يخطر له قتل الأقباط أو غيرهم الاّ الخائض في مؤامرة تقسيم وطنه وتدمير أمته؟... ما يجري اليوم هو رأس جسر لفتنة يراد لها أن تعبر إلى كل البلاد العربية...».

ويرتفع صوت مسلم من طرابلس الفيحاء، هو صوت اللواء الركن عزيز الاحدب في النهار ٩٢/١٢/٢٣، مذكراً «الاخوة المواطنين المصريين» بصيغ التعايش الاسلامي - المسيحي في مصر على مر العصور، مذ نزلت الآية القرآنية الكريمة «ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون - صدق الله العظيم» سورة المائدة /٨٢، حتى الصراع العربي - الاسرائيلي. وانتهى اللواء الركن الاحدب بالقول: «... وفي الختام لبّيت النداء يا سيادة المطران الكريم، ورفعت صوتي بأمانة واخلاص... وآمل أن اكون احسنت الاداء وقمت بالواجب...».

وبعد أيام قليلة من الردين، ورد توضيح رسمي على لسان سفير مصر في لبنان حول ما يجري من «اعتداءات مجرمة» تقوم بها الجماعات الاسلامية المتطرفة ضد الاقباط والمسلمين، بقصد إثارة الفتنة وتقويض دعائم الاقتصاد المصري.

ونحن من جهتنا، نذكّر بما ورد في خطبة ألقاها عمرو بن العاص أمام جموع المسلمين عام ٦٤٤م: «... اذهبوا بعون الله، فازرعوا الارض وكلوا من خيراتها ولبنها وقطعانها وصيدها. واطعموا جيادكم وحافظوا عليها فهي عدّتكم ضد العدو وبها تنتصرون وتغنمون. واحفظوا عليها عهد جيرانكم الاقباط. ان امير المؤمنين عمر قال لي انه سمع رسول الله يقول ان الله سيفتح عليكم مصر بعدي، فاحفظوا عهد أقباطها فهم أهلكم وهم في حمايتكم...».

فمن هم يا ترى هؤلاء الاقباط؟ هل هم إثنية عرقية أم أقلية طائفية؟

لماذا لم تذكرهم الكتب المدرسية عندما تتناول تاريخ مصر، ولا حتى عن المرحلة السابقة لتعريب البلاد، وطبعها بالطابع الاسلامي؟

لماذا أهمل ذكرهم غالبية المؤرخين العرب؟

كلها تساؤلات دفعتنا إلى محاولات متواضعة للكشف عن «قصة» هذا الشعب، وعلّنا قد وفقنا إلى بعض الاضاءات، محاولين الابتعاد عن أية ايديولوجية أو فرضية مسبقة. وما ورد من بعض الاصطلاحات والعبارات المنفِّرة احياناً، ما استعملت الاّ لضرورات الحقبة التاريخية التي نتكلم عنها.

وقبل أن نبدأ بسرد أحداث «القصة»، لا بدّ لنا من تعريف وملاحظات.

ما هي الاثنية؟

الإثنية هي مجموعة أشخاص يعيشون في مجتمع أكبر، ويتفقون على انهم يعودون إلى عرق واحد، ويتمتعون بثقافة واحدة.

وللإثنية مكوِّنات أو مظاهر عديدة أهمها اللغة والدين والعادات. وهي مظاهر ليست عامة ولا مطلقة، انما تشكل الحد الادنى، وهي قابلة للمناقشة.

وفي دراستنا لقصة الأقباط في مصر، سوف يجد القارىء ان بعض هذه المكوِّنات قد أفسح المجال لعناصر قومية اخرى، منذ أواخر القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر.

فمنذ الفتح العربي لمصر، تمسّك الاقباط بلغتهم الخاصة، لكن دون أن يسعوا إلى تطويرها إزاء اللغة العربية التي كان انتشارها أشمل وأعم بكثير من انتشار الديانة الاسلامية لعدة اعتبارات سوف نأتي على ذكرها في فصول لاحقة.

وعلى صعيد آخر فإن عامل الدين، وان اعتبر كأحد أهم

المكوّنات الإثنية، لم يقسم المسلمين والاقباط إلى أمتين في مصر، وهو أمر عبّر عنه مراراً زعماء الاقباط، حين رفضوا اعتبارهم «اقلية» عند وضع دستور عام ١٩٢٣ .

والتاريخ المصري يشهد ان العلاقات الاسلامية - القبطية لم تأخذ الطابع الانفصالي أو الانعزالي ضمن المجتمع العربي الأكبر. إنما على عكس ذلك، فالاقباط عبّروا، قولاً وعملاً، على انهم شركاء في الوطن والتاريخ والمصير، وكان لهم مواقف يزهو بها جبين ارض الكنانة.

وما يجري في مصر اليوم، وما كان يجري في غيرها كلبنان والعراق مثلاً، الاّ جزء لا يتجزأ من الفتنة الكبرى التي يراد لها ان تفتّت البلاد العربية إلى كيانات طائفية أو إثنية تدعم اركان الكيان الصهيوني.

ومع اقرارنا بالانتماء الوطني والقومي للاقباط في مصر، بيد أن لنا بعض الملاحظات:

أولاً: لقد شكّل الاقباط، بالقول وبالفعل، جزءاً لا يتجزأ من هذا الشرق عامة، وجزءاً من الحضارة العربية خاصة.

ثانياً: ان المجتمع المصري يتكوّن من طائفتين دينيتين رئيسيتين هما الاسلام والمسيحية. وان لكل منهما خصائصها المميزة من عادات وتقاليد وثقافة، وذلك لاعتبارات تاريخية عديدة.

ثالثاً: ان الاقباط، على الرغم من الخصائص المميزة تلك، لم يقبلوا يوماً أن يكوّنوا أقلية إثنية أو طائفية ترتبط بمصالح هذه الدولة الاجنبية أو تلك.

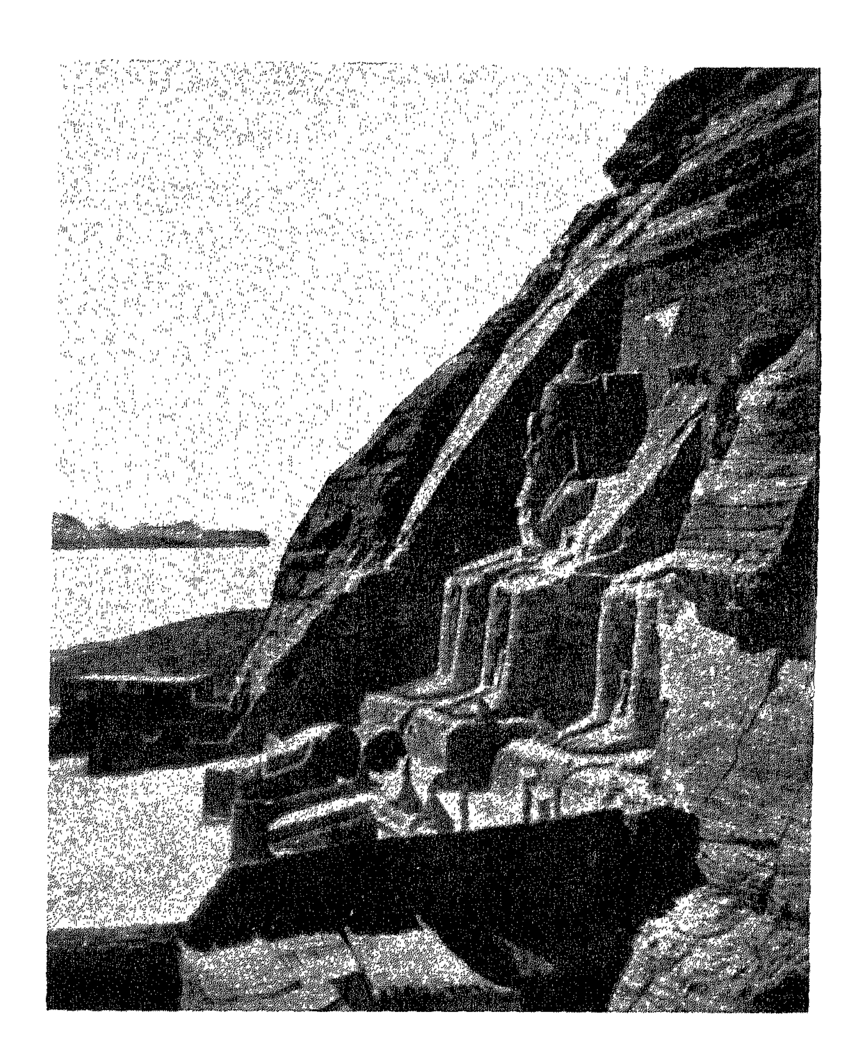
رابعاً: إن العالم عامة، والبلاد العربية والاسلامية خاصة - ومنها مصر - تشهد ازدياد الثقل السياسي للمؤسسات الدينية الرسمية وغير الرسمية، الاسلامية والمسيحية، نتيجة تراجع دور الدول والحكومات في

تقديم الخدمات، الأمر الذي أدى إلى قيام مؤسسات منفصلة اسلامية ومسيحية ذات طابع اقتصادي أو اجتماعي أو ثقافي. وقد رافق هذه الظاهرة في مصر بروز تيارات متناقضة، تتصارع داخل المجتمع المصري كتيارات التعصب والاصولية والعلمانية... فلمن يا ترى سوف تكون الغلبة؟

والاّ فالخوف ليس على الاقباط المسيحيين أو على المسلمين وحسب، انما الخوف والخطر على مصر ممّا يبيَّت لها...

والأخطر ان نجحت القوى التي، من خلال تخلفها وتعصبها الطائفي، تكون قد قدّمت للكيان الصهيوني الدعائم والحجج التي تخدم مخططاته في البقاء والتوسع.

الدكتور فرج زخور
حلبا في أواخر شتاء ١٩٩٣



معبد أبو سنبل

من هم الأقباط

قبل الفتح العربي لمصر، سميت البلاد باسم «دار القبط»، وعرف سكانها بالأقباط.

وتتعدد الآراء حول اصل كلمة «قبط»، فبعض المؤرخين يردون اصل الكلمة إلى اسم «قبطيم» بن «مصريم» أحد أحفاد نوح الذي استقر في وادي النيل، وبنى فيه مدينة سمّاها «قفط» باسمه.

ومنهم من يرى أن الأشوريين في كتاباتهم المسمارية قد أطلقوا اسم «هيكوبتون Hi-Ku-Pton» على سكان وادي النيل، وعنهم أخذ المؤرخون اليونانيون الاسم وجعلوه «ايجيبتوس».

لكن، مهما يكن مصدر كلمة «قبط»، فالكلمة أصبحت تطلق تخصيصاً على المسيحيين من اهل مصر الذين ظلوا على ديانتهم بعد أن تحوّل غالبية السكان الى الديانة الاسلامية.

والاقباط الحاليون يمثلون السلالة التي تنحدر مباشرة من سكان مصر الأقدمين، وهم الذين يرجعون في أصلهم إلى جنس البحر الابيض المتوسط الاوروبي القوقازي المتميّز بتدرج ألوان بشرة أفراده من الابيض الفاتح إلى البني الغامق.

* التعداد السكاني للأقباط:

ليس من احصاءات حول عدد السكان الاقباط في مختلف مراحل تاريخ مصر. إنما من الثابت والأكيد ان بين سكان مصر الحاليين حوالي ٨٨٪ من الأسر القبطية القديمة اعتنق تسعة أعشارها الديانة الاسلامية.

وأول احصاء تقريبي ويحتمل الكثير من الجدل، هو ذاك الذي وضعه علماء الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨، وفيه ان سكان مصر آنذاك يبلغون حوالي مليونين ونصف المليون، بينهم ما يقارب ١٧٪ من الأقباط.

وقد بلغ عددهم، في مطلع القرن العشرين، حوالي مليون نسمة، أي ما يوازي ١٠٪ من مجموع السكان العام في مصر.

واستمر، طوال هذا القرن، الجدل قائماً حول تقدير عدد الاقباط، بين الاحصاءات الرسمية المتابعة وتلك التي تعود إلى مصادر الكنيسة القبطية الارثوذكسية. ففي حين أوردت الاحصاءات الرسمية لعام ١٩٧٥ أن عدد الاقباط في مصر يبلغ حوالي ثلاثة ملايين من أصل أربعة واربعين مليوناً، أي بنسبة ٧٪ من المجموع العام، فقد جعلته المصادر القبطية يتراوح بين سبعة وثمانية ملايين على الأقل، أي بنسبة ١٦ - ١٨٪.

لكن الباحثين الغربيين انتهوا إلى التقدير ان نسبة الاقباط إلى المجموع العام لا تتعدى ١٠٪، وبذلك يكون عددهم عام ١٩٨٥ - برأي هؤلاء الباحثين - حوالي أربعة ملايين وثمانماية الف قبطياً من عدد سكان مصر الاجمالي البالغ ثمانية وأربعين مليوناً.

والكثافة السكانية للأقباط في مصر تتفاوت بين منطقة وأخرى

وبين محافظة واخرى، فتزداد في الصعيد وتقل في الدلتا.

واكثر المحافظات كثافة قبطية هي أسيوط والمنيا وسوهاج وقنا. ويوجد الاقباط بكثافة ملحوظة في عدد من أحياء القاهرة مثل شبرا والأزبكية ومصر الجديدة ومصر القديمة والساحل.

ومن الملاحظ أن المجتمع القبطي يواجه انخفاضاً في عدد أفراده، وفي مواقعهم الاجتماعية، وهو يتعرّض لجملة متغيّرات رئيسية أهمها:

١ - التحوّلات الدينية إلى الاسلام، تحت تأثير ظروف اجتماعية واقتصادية وتشريعية، وذلك بمعدل سنوي يزيد على سبعة آلاف شخص.

٢ - الهجرة الدائمة في صفوف الاقباط إلى كندا والولايات المتحدة الاميركية وأوستراليا، والى بعض الدول الاوروبية.

إن هذه الهجرة قد اخذت تتزايد، خاصة منذ أوائل الستينات؛ ففي العام ١٩٦٢، بلغ عدد المهاجرين /٤٣٩٩/ قبطياً مقابل /٥٠٦/ مسلمين. وبلغ عدد الذين هاجروا عام ١٩٧٩ حوالي /١٥٠/ ألف قبطياً.

أما هجراتهم إلى البلاد العربية فهي بدرجة أقل بكثير، إنما لهم كنائس قبطية أرثوذكسية في عمان وبغداد والكويت ولبنان...

وعلى الرغم ممّا تعرض له الاقباط، وما يتعرضون إليه اليوم، لم يقفوا موقفاً سلبياً من بلادهم، فهم يعملون في شتى القطاعات كالتجارة والصناعة والزراعة والخدمات السياحية، إلى جانب المهن الحرة كالاطباء والصيادلة والمهندسين والمحامين واساتذة الجامعات، والموظفين في القطاعين العام والخاص. وهم يساهمون عملياً في بناء ونهضة مصر فكرياً وفنياً وعلمياً، ومنهم من برز على المستوى السياسي محلياً وعالمياً

في شتى مراحل تاريخ مصر الحديث، منذ أيام احمد عرابي باشا حتى يومنا الحاضر.

وغالبية الاقباط تتبع الكنيسة القبطية الارثوذكسية التي تعرف ايضاً باسم «كنيسة الاسكندرية»، أقدم الكنائس في مصر، وهي التي اسسها القديس مرقس الذي قدم البلاد بين عامي ٤٨م و ٦٤م، ولها اليوم بابا يدير شؤونها، ويرعى مصالح اتباعها.

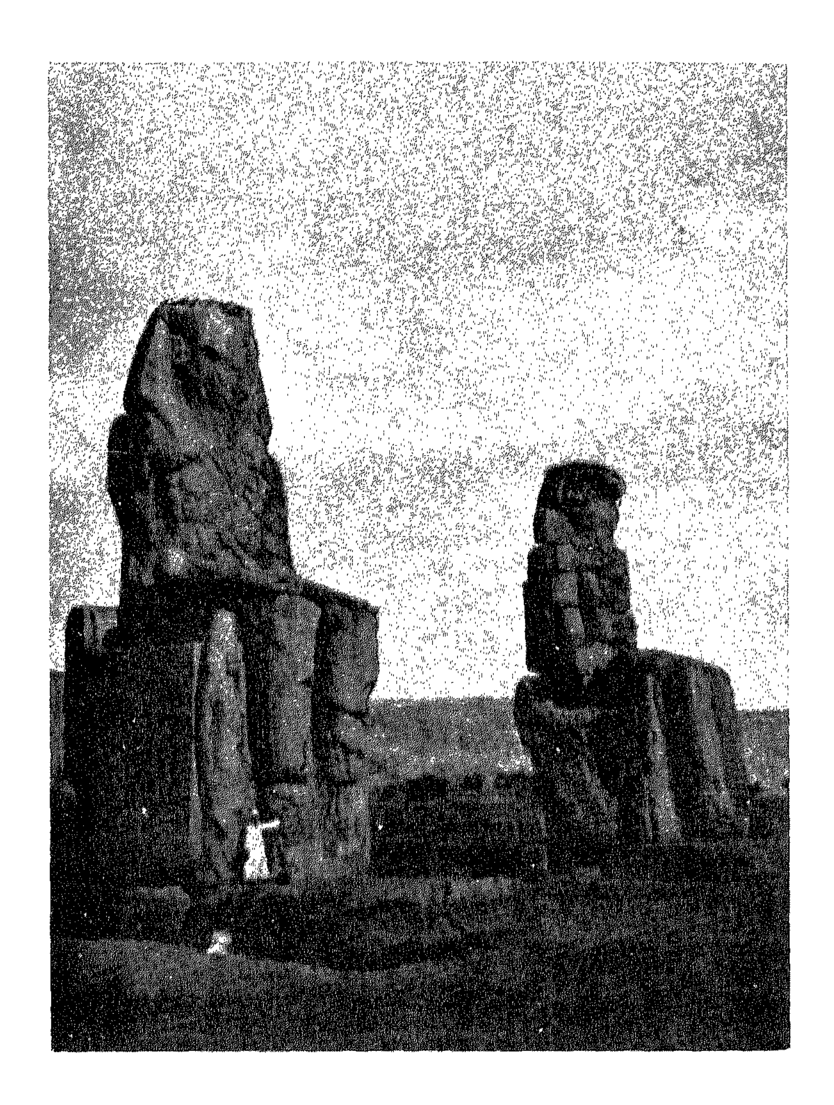
ومن الاقباط ايضاً من يتبع المذهب الكاثوليكي الذي انتشر في البلاد على أيدي الرهبان الفرنسيسكان منذ مطلع القرن الثالث عشر.

ومنهم من يتبع المذهب الانجيلي، ولهم في مصر كنيسة منذ عام ١٨٦٠، وقد استقلت عام ١٩٥٨ عن المحفل العام لمشيخية الولايات المتحدة الاميركية.

ويبلغ عدد الكنائس القبطية في مصر حوالي /١٤١٣/ كنيسة موزعة في محافظات المنيا وأسيوط وسوهاج والاسكندرية والغربية والقليوبية.

وفي البلاد حوالي /٣٧/ ديراً، معظمها في المدن.

ويتبع هذه الكنائس والأديرة مجموعة مؤسسات قبطية كالمدارس والجمعيات ومراكز الخدمات الطبية، ويصدر عنها مجلات دينية وعلمية متخصصة...



تمثالا ممنون

التكوين الاجتماعي للأقباط

مصر هي تلك البلاد التي تحيط بنهر النيل، من حدود أرض النوبة إلى ساحل المتوسط، ومن برقة إلى ساحل البحر الاحمر.

كانت تسمى قديماً «كمت» أي الارض السوداء، على عكس المنطقة التي تحيط بها والمسماة «دشرت»، ومنها اشتقت اللفظة اللاتينية Desert، ويقصد بها الأرض الحمراء أي الصحراء. غلبت على هذه البلاد التسمية اليونانية Aegyptus، ثم استعملها اللاتين باسم Egypte.

وقد تكون التسمية مشتقة من أحد أسماء «منف» القديمة، عاصمة مصر. ونقلت إلى العربية بلفظة «قبط». للدلالة على أهل مصر المسيحيين.

ويظهر ان مصر لم يطلق عليها هذا الاسم الاّ من قبل الساميين، أو من قبل العرب، بحيث تعني الأرض التي على الحدود أو الحضر، أو الأرض الكثيرة الخيرات.

منذ القديم، سكن هذه البلاد جنس بشري جمع بين الإرثين الحامي والسامي، وإلى عهد الفراعنة لم يكن فيه الاّ أثر ضعيف من الجنس الزنجي.

هذا الجنس البشري استطاع ان يكوّن له حضارة تعدّ من أقدم الحضارات التي يمتد تاريخها إلى اكثر من خمسة آلاف سنة قبل الميلاد.

وفي هذا المجتمع المصري العريق، عرفت وحدة الانتاج الزراعي باسم «المشترك القروي» الذي كان يضم عدداً من الأسر. وكان الفلاح الذي يعمل ولا يملك يشكل محور العملية الانتاجية، في حين كان المالك هو شيخ القرية ومدير شؤونها.

ومع مرور الزمن، ولما قامت الدولة المركزية القوية، تحولت إلى مالك فعلي للأرض على اتساع رقعة البلاد، يحكمها حاكم فرد (فرعون، ملك، حاكم، والي، موظف...)، تساعده فئة من الموظفين، مهمتها انشاء السدود والأقنية للري، وتنظيم الزراعة، وحفظ الأمن في الداخل، والدفاع عن حدود البلاد ضد الاعتداءات الخارجية...

ولطالما نشبت في المجتمع المصري، نتيجة التغيرات التي تصيب المُلكية، انتفاضات فلاحية وثورات اجتماعية، غالباً ما كانت تؤول إلى الفشل، وبالتالي تتفشى ظاهرة النزوح القسري للفلاحين عن قراهم.

والمجتمع المصري كان منقسماً إلى طبقتين اجتماعيتين: طبقة الحاكمين، وتضم الملك (الفرعون) ونوابه، وكبار الموظفين من مدنيين وعسكريين... وطبقة المحكومين، وتمثلت بالفلاحين والرعاة والصيادين... ولقد كانت هذه الأخيرة موضع استغلال بالغ الشدة.

وفيما بعد، وعلى أثر ضعف السلطة المركزية، برزت من صفوف الموظفين فئة من أصحاب الملكيات الكبرى (اقطاعيين)، مما أحدث تبدلاً أو انقلاباً، أدّى بدوره إلى انفجار الصراعات الاجتماعية داخل المجتمع المصري القديم.

وانتهى الأمر أن يصبح للفرعون وظيفة دينية - لتقوية موقعه السياسي الضعيف - واصبحت الديانة ديناً مركزياً للدولة ومؤسسة فكرية وظّفت للمحافظة على تماسك المجتمع المصري، واحياناً لتوحيد

البلاد ضد الغزاة.

واصبح الكهنة جزءاً مهماً من اجهزة الدولة، وتسلّم بعضهم مقاليد الحكم في مصر القديمة.

وفي العهدين البطليمي (نسبة إلى بطليموس) والروماني، طرأ بعض التغيير في نمط الانتاج السائد، إذ ازدهرت التجارة الخارجية ازدهاراً كبيراً، وقامت الملكيات الكبيرة في الريف. لكن هذا التغيير لم يؤد إلى تصفية ذلك النمط، إذ استمرت الارض في غالبيتها تؤول في النهاية إلى ملكية للدولة.

على الصعيد السياسي، توالى على حكم مصر ثلاثون أسرة، توزعت على اربعة أدوار هي: الدولة القديمة، والدولة الوسطى، والدولة الحديثة، ثم عهد الانحطاط.

تبدأ الدولة القديمة بتوحيد البلاد حوالي عام ٣٢٠٠ ق م، على يد الفرعون مينا. وقد شهدت مرحلة من الازدهار، واشتهرت ببناء الاهرامات (خوفو، خفرع، منكورع)، وبعلاقاتها التجارية خاصة مع فينيقيا، وكانت عاصمتها مدينة تنيس.

وفي أواخر هذا العهد حصلت ثورات سياسية واجتماعية ادت إلى تفكك الدولة، لكن ملوك الدولة الوسطى اعادوا للبلاد وحدتها وازدهارها، واتخذوا لهم مدينة طيبة عاصمة. ولم يدم الازدهار طويلاً في عهد الدولة الوسطى بسبب احتلال الهكسوس لمصر، وحكمها اكثر من قرن ونصف القرن.

ومع عهد الدولة الحديثة، بلغت مصر مرحلة من القوة والاتساع، بحيث اصبحت امبراطورية امتدت حتى الفرات شرقاً.

وفي هذا العهد قامت ثورة اخناتون، كمحاولة لعبادة الاله الواحد

آتون (قرص الشمس)، واتخذ له عاصمة جديدة في تل العمارنة، لكن محاولته فشلت بسبب قيام الكهنة عليه.

وبعد الفرعون رعمسيس الثاني ضعفت مصر، وتقلّصت سلطة الملوك، واستقل الحكام بمقاطعاتهم، وغزت البلاد شعوب غريبة وحكمتها كالليبيين والاثيوبيين والفرس.

وهكذا فقدت مصر استقلالها، ثم تمّ فتحها على يد الاسكندر المقدوني في سنة ٣٣٢ ق م، واليه يعزى بناء مدينة الاسكندرية التي ستلعب دوراً هاماً فيما بعد.

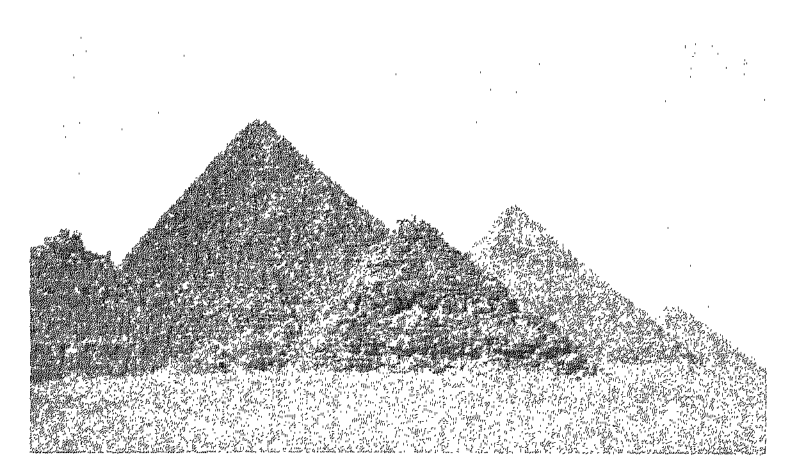
ولما توفي الاسكندر عام ٣٢٣ ق م، اقتسم قواده الثلاثة الامبراطورية الواسعة فيما بينهم، فحكم انتيغونس آسيا الصغرى ومقدونية، وتولى سلوقس حكم سورية، فيما آلت أمور مصر إلى بطليموس، فأرسى قواعد مملكة البطالسة التي امتد عهدها إلى سنة ٣٠ ق م حين غزا أغسطس مصر بعد انتحار كليو باترا واصبحت جزءاً من الامبراطورية الرومانية الواسعة.

وقد دعا المؤرخون العصر الذي بدأه الاسكندر المقدوني وانتهى عام ٣٠ ق م بالعصر الهليني أو الاغريقي، إذ شيّد البطالسة في مصر أُسس دولتهم على نظام اغريقي بحت، فاستعانوا بالاغريق دون غيرهم لتدعيم حضارتهم، واعتبروا لغتهم لغة البلاد الرسمية، مع انتشار اللغة اللاتينية في بعض الحواضر الفكرية كالاسكندرية...

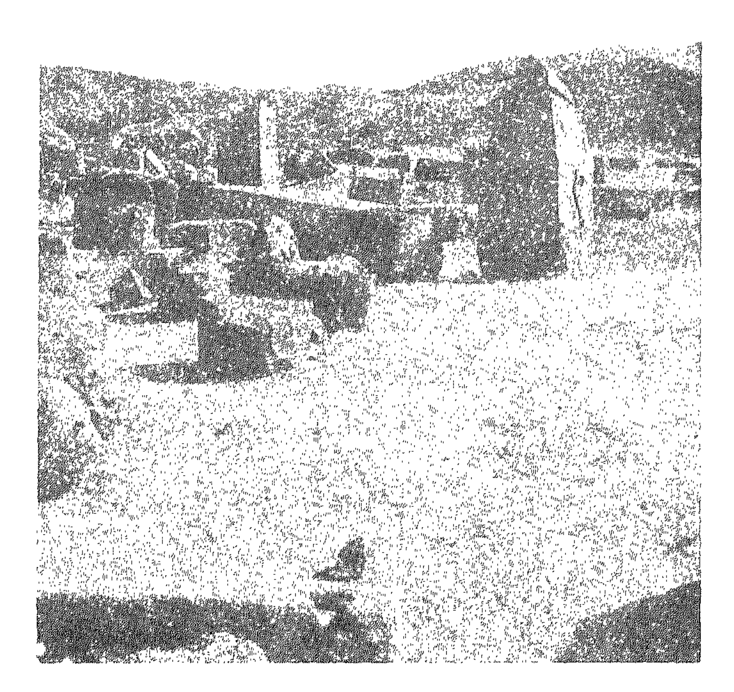
ورغم ان مصر قد اصبحت بحضارتها آنذاك تمثّل ذروة الحضارة الاغريقية، لكن المصريين سكان البلاد الاصليين احتفظوا بطابعهم الحضاري المميّز.

ولما انتقل الحكم من البطالسة إلى الرومان، حاول الأخيرون

اقتباس الحضارة الاغريقية، ووضعوا عدة تشريعات مالية واجتماعية ودينية وسياسية، وقف منها المصريون مواقف سلبية، تحولت إلى اضطرابات سادها العنف خلال القرنين الاول والثاني للميلاد.



هرم خوفو (أكبر أهرام الجيزة، من السلالة الرابعة



معابد آمون رع في تانيس

مصر المسيحية:
كنيسة الاسكندرية القبطية

ظل الاقباط خلال احتلال الاسكندر لبلادهم، والبطالسة من بعده، ثم الرومان، يكوّنون شعباً قبطياً مستقلاً في الجنس واللغة والتقاليد والعبادات...

فعلى الصعيد الديني - الثقافي، عاش المصريون بدينهم الاول آلاف السنين، ورفض كهنتهم الآلهة التي حاول البطالسة والرومان فرضها عليهم، كما قاوم الفلاحون الاقباط عبادة الاله سيرابيس.

هذه المواقف السلبية، كما تقدم، قد تحوّلت إلى اضطرابات عنيفة خلال القرنين الاول والثاني للميلاد، وخلال القرون اللاحقة.

إلى هذين القرنين الأولين يعود تأثر مصر، بسكانها الاقباط، بحدثين هامين جداً، ومترابطين إلى حد بعيد، غيّرا مجرى تاريخ البلاد، وهما:

الاول: بدء انتشار الديانة المسيحية في القرن الاول للميلاد، وتحوّل المصريين الاقباط إلى هذه الديانة الجديدة.

الثاني: قيام الامبراطورية البيزنطية في الشرق بعد قرار الامبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م) الذي قضى بأن يتولى الامبراطورية

الرومانية امبراطوران في آن واحد. وقد تمّ ذلك بعد وفاة الامبراطور ثيودوسيوس سنة ٣٩٥م، بحيث قسمت الامبراطورية بين ولديه: أركاديوس الذي كان نصيبه الشرق واتخذ بيزنطية عاصمته، وهونوريوس الذي حكم القسم الغربي من عاصمته روما.

لقد تحوّل الاقباط منذ وقت مبكر جداً إلى المسيحية التي كانت تنادي ضد ظلم الرومان، وكانت في جوهرها تشبه ديانتهم القديمة. فالثالوث في المسيحية يشبه ثالوث اوزيريس وايزيس وحورس في الديانة المصرية القديمة. وكذلك الايمان بالحياة الآخرة، وخلود الروح، والثواب والعقاب، وتحريم الطلاق...

انتشرت المسيحية في مصر، منذ منتصف القرن الاول للميلاد، على يد أحد تلامذة السيد المسيح وهو القديس مرقس الذي قدم البلاد مبشراً، وفيها اضطهد واستشهد حوالي عام ٦٨م.

وسرعان ما اعتنق الاقباط المسيحية، جذبهم اليها اعتبار أفكارها سلاحاً للفقراء في مواجهة السيطرة الغربية المتمثلة بجبروت الامبراطورية الرومانية الوثنية. لذلك، إلى جانب تطابق جوهر هذا الدين مع ديانتهم القديمة، كان عليهم في مقاومتهم للحكم الروماني أن يتزودوا بأفكار تحمل تطابقاً بين الموقف الديني ونزعتهم إلى التحرر.

والمسيحية في مصر لم تقتصر على منطقة معينة، انما انتشرت في جميع انحائها في القرن الثالث الميلادي، بدليل كثرة روايات اضطهاد الدولة الرومانية وتعذيبها الاقباط المسيحيين، لدرجة ان القمع الدموي بلغ ذروته في أواخر القرن الثالث للميلاد، فعرف ذلك العهد بعصر الشهداء.

وفي العام ٣١١م، اعترف الامبراطور قسطنطين الكبير بحق

المسيحيين في ممارسة ديانتهم، «وللمسيحيين ان يستمروا في الوجود، وان ينظموا اجتماعاتهم شرط الاّ يخلّوا بالنظام، وعليهم بناء على تسامحنا وتعطفنا أن يصلّوا إلى الههم ليسعد ظروفنا وظروف الدولة وظروفهم».

وفي العام التالي - ٣١٢م - أصدر مرسوم ميلان الذي قضى باعتبار الدين المسيحي دين الدولة الرسمي. وفي سنة ٣١٥م، أصدر أوامره المشدّدة بتحريم التبشير باليهودية والدعاية لها.

وبدا وكأن الخلافات بين المسيحيين في مصر والأباطرة قد طويت صفحتها بعد هذا التاريخ. لكن الصراع استمر مع الاباطرة المسيحيين الذين كانوا يناصرون مذاهب مخالفة لمذهب الكنيسة المصرية.

فالمسيحية المصرية قد اتخذت صبغة تتفق وعقلية أهل البلاد، وهي الطبيعة الواحدة للسيد المسيح، على عكس البيزنطيين الذين نادوا بالطبيعتين الألهية والبشرية للمسيح.

وعلى الرغم من المجامع التي عقدت لتقريب وجهات النظر، فقد كان موقف الاقباط الديني سبباً في ان المسيحية في مصر واكبتها حركة قومية منذ ظهورها، خصوصاً وان البيزنطيين كانوا كالرومان يضطهدون الاقباط أصحاب الطبيعة الواحدة، ويعزلون بطاركة كنيستهم ولطالما اتخذ بطريرك الاسكندرية مواقف معارضة لتدخل الاباطرة البيزنطيين في المسائل الدينية والاعتقادية.

فالبطريرك اثانيوس الذي تم انتخابه عام ٣٢٦م، والذي استمر في منصبه ستة واربعين سنة، كتب ذات مرة إلى امبراطور بيزنطية يقول: «لا تقحم نفسك في المسائل الكنسية ولا تصدر الينا أمراً بشأن هذه المسائل. لقد اعطاك الله المملكة، وعهد الينا بأمور الكنيسة، وليس مسموحاً لنا

بأن نمارس حكماً أرضياً، وليس لك سلطان ان تقوم بعمل كنسي»، وكأنه بذلك يدعو إلى فصل الدين عن الدولة (اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله...).

والاقباط من جهتهم كانوا يقاومون الدولة ويثورون عليها، كما حصل في الاسكندرية أيام حكم قسطنطين. ولما تولى هرقل الحكم أرسل إلى مصر الحاكم «قيرس» (المقوقس) عام ٦٣١م، ليعمل على تحويل أهل البلاد إلى العقيدة الرسمية بالقوة. لكن بطريرك الاقباط بنيامين قاوم مع ابناء كنيسته، واضطر إلى الهرب إلى الصحراء، والاختباء في أحد أديرة الرهبان، واستمر في مخبأه حتى دخول العرب الفاتحين.

وإلى جانب انتشار المسيحية، ظهر نظام الرهبنة أو الديرية في مصر قبل أي مكان آخر، وخاصة ابتداء من عهد الامبراطور فالنس (٣٦٤ - ٣٧٨م). وقد أثر هذا النظام سلباً على تجنيد المصريين في الجيش الروماني، مما حدا بهذا الامبراطور إلى مناهضة الرهبان وملاحقتهم، فنشبت ثورة في الاسكندرية، قام خلالها المصريون بنهب أملاك الأغنياء، وهاجموا الاحياء اليهودية.

وفي مطلع القرن السابع للميلاد، استطاع الفرس احتلال مصر حوالي عشر سنوات، وظهر تفكك الامبراطورية الرومانية، وضعفت قوتها العسكرية مما أدى إلى سقوط مصر أمام الفتح العربي عام ٦٤١م.

في أقل من قرن واحد، اصبحت مصر بكاملها على الديانة المسيحية. ومع ازدياد عدد المسيحيين هذا، أصبحت كنيسة الاسكندرية الاولى بين الكنائس المسيحية في الامبراطورية الرومانية. وكان بطاركتها يختارون من العائلات العريقة جداً، واستمرت هكذا حتى انعقاد مجمع خليقدونيا عام ٤٥١م. ولقد استطاعت هذه الكنيسة ان تكسب

استقلالها، وازدادت املاك الأديرة التابعة لها، واصبح للبطاركة والأساقفة فيها سلطات مدنية وقضائية وسياسية إلى جانب سلطاتهم الدينية.

لكن منذ القرن السادس للميلاد، اضطربت احوال المصريين، واشتدت قبضة الموظفين، وفرضت ضرائب جديدة.

وباءت محاولات الامبراطور جوستنيان بالفشل عندما حاول أن يحدّ من امتيازات كبار الملاّكين والموظفين. وعلى صعيد آخر، اضطربت احوال التجارة في الامبراطورية، وبدا أن الامور تسير من سيء إلى أسوأ باتجاه الهاوية. إزّاء هذه الاحوال المتردية، وجد الاقباط أنفسهم مدفوعين إلى ايجاد السبل لخلاص مجتمعهم. وقد برزت هذه المحاولات في اكثر من مجال، كانت تسير جنباً إلى جنب:

الاول: مجال اللغة:

منذ مطلع القرن الثالث الميلادي، ظهرت محاولات على نطاق ضيق جداً لكتابة اللهجة المصرية العامية، وذلك عن طريق ادخال عدة أحرف ديموطيقية (هيروغليفية) إلى الابجدية الاغريقية المتداولة. تلا ذلك محاولات أقوى نسبياً، خاصة بعد انتشار المسيحية واعتناق الاقباط لها، بأن تمّ ترجمة الكتاب المقدس (الانجيل) الى اللغة القبطية، وتوقف كنيسة الاسكندرية عن استخدام اللغة اليونانية في الطقوس الكنسية.

ثم كانت دعوة القديس شنودة الاخميمي، منذ النصف الاول من القرن الخامس الميلادي، الى تطهير اللغة المصرية القبطية من كل أثر يوناني، واصبحت اللهجة الصعيدية لغة الأدب والكتابة في مصر.

الثاني: مجال الفكر الديني:

شهدت مصر قيام حركة الرهبنة أو الديرية، وكانت أهم مراكزها الاقليم الطيبي في منطقة الصعيد. وبلغت هذه الحركة أوسع انتشارها في القرنين الثالث والرابع للميلاد على أيدي القديسين بولس وانطونيوس في الصحراء الشرقية. وتحولت في القرن الخامس للميلاد الى نظام «رهبان الشركة» مع القديس باخوم، فاصبح الدير أشبه بمستعمرة اقتصادية تتمتع إلى حد ما بالاكتفاء الذاتي. ومع الوقت انتشرت الأديرة من أعالي الصعيد إلى مصر الوسطى، ثم إلى شمال مصر عند وادي النطرون.

وشكل رهبان وادي النطرون ومريوط في الاسكندرية فرقاً منظمة ساندت غالباً بطاركة الاسكندرية في صراعهم ضد المذهب الرسمي للدولة.

ومن جهة أخرى، وانطلاقاً من الاقليم الطيبي ايضاً، عمل القديس شنوده الاخميمي على محو آثار الوثنية وعبادة الاله سيرابيس، وحوّل المعابد الوثنية القديمة إلى كنائس مسيحية قبطية.

ومنذ أواخر القرن الثالث الميلادي، تصدّت مدرسة الاسكندرية اللاهوتية لادعاءات المدرسة الاغريقية الوثنية، وبرز منها علماء كبار نذكر منهم اوريجانوس (ت عام ٢٥٤م) الذي اهتم بادخال الفلسفة والمنطق والعلوم الرياضية في المدرسة. وقد وصف اوريجانوس بأنه مسيحي في اسلوب حياته، ولكنه يوناني في تفكيره، لهذا اتّهم بالهرطقة في مجمع القسطنطينية عام ٥٥٣م.

إضافة إلى ما تقدم، فإن كنيسة الاسكندرية، في القرنين الرابع والخامس للميلاد، قد تصدّت إلى العديد من البدع والهرطقات كالآريوسية (خلال مجمع نيقيا ٣٢٥م)، والنسطورية (خلال مجمع افسوس عام ٤٣١م). كما استطاع الفن الديني القبطي (الايقونات) أن يبتعد إلى حد ما عن المؤثرات الرومانية - البيزنطية، ويتميز عنه.

الثالث: مجال التفاعل مع الثقافات الاخرى:

قام الاقباط بعمل تبشيري مسيحي في آسيا، واتصلوا بالغساسنة على حافة شبه الجزيرة العربية الشمالية، خاصة بعد مجمع خليقدونيا عام ٤٥١م.

واكثر من ذلك، ففي أواسط القرن السادس للميلاد، قام بطريرك الاسكندرية ثيودوسيوس بسيامة مطرانين في الشرق، أحدهما في الرها والآخر في البصرة.

وأقام الاقباط ايضاً علاقات وطيدة مع السريان في سورية، خاصة مع أتباع يعقوب البرادعي الذي كان يدافع بصلابة عن مذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح.

واعتبر دير الهانادون جنوبي الاسكندرية من المراكز العلمية التي أقامت مثل هذه العلاقات بسورية، وفيه جرت مراجعة الترجمة السريانية للانجيل، ومقابلته على النص اليوناني.

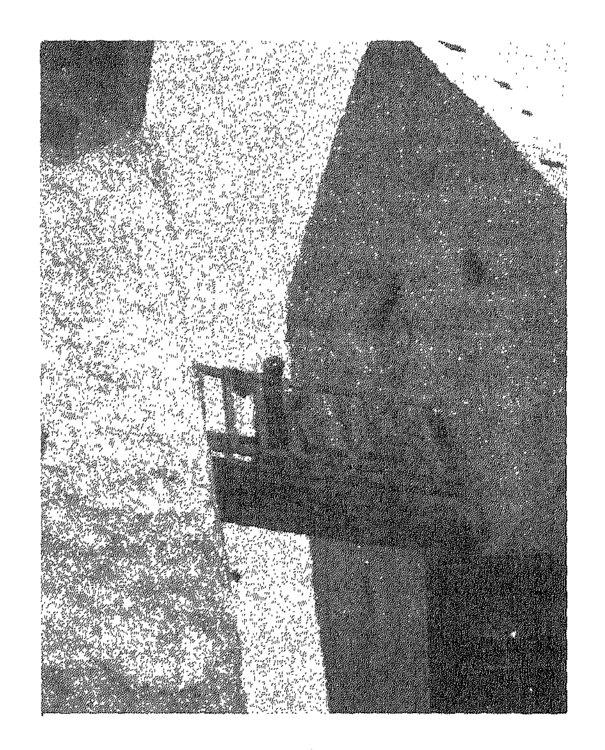
وفي القرن السادس للميلاد، تأسس دير للسريان في وادي النطرون حيث كان يأوي رهباناً أقباط إلى جانب الرهبان من السريان. وفي عام ٦٨٤م، اصبح احد هؤلاء الرهبان السريان رئيساً لكنيسة الاسكندرية تحت اسم سيمون الاول، وهو البطريرك الثاني والاربعون.

وهكذا يمكن ان نقول ان مرحلة من مراحل تاريخ مصر قد عرفت باسم «العصر القبطي» ذي الطابع المسيحي الشرقي. وقد سعى المصريون الاقباط خلاله أن يحدّدوا مقومات رئيسية لهوية ثقافية متمايزة طرحت نفسها إزاء الحضارات الوافدة كالهلينية والرومانية والبيزنطية. وتجلّت هذه المقومات بتحول الاقباط من الوثنية إلى المسيحية، وتمسكهم بمذهب الطبيعة الواحدة للسيد المسيح، وبإعادة الاعتبار إلى اللغة القبطية

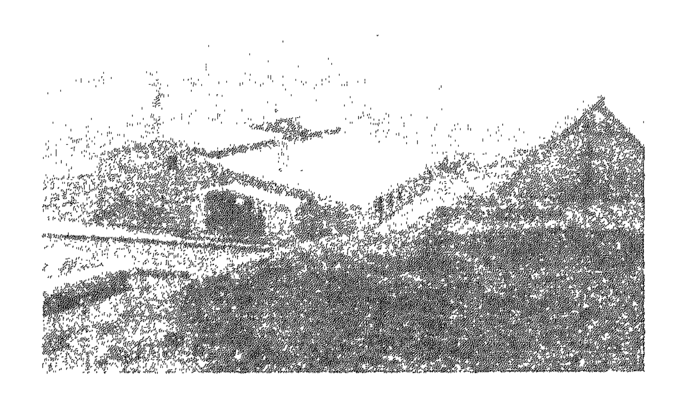
في مواجهة اليونانية، ثم بالتفاعل الثقافي والحضاري مع الثقافات الشرقية كالعربية والسريانية وغيرهما...

ولما وعى هرقل (٦١٠ - ٦٤١م) خطورة الموقف القبطي، أعلن عام ٦٢٢م مذهباً توفيقياً - وحدة المشيئتين الالهية والبشرية في السيد المسيح - محاولاً تجاوز الخلاف بين الاقباط ودعاة الطبيعتين. ولجأ إلى فرضه على كنيستي الاسكندرية وانطاكية، غير أن محاولته باءت بالفشل، فاستخدم العنف.

وهنا دخلت مصر، في الفترة التي سبقت الفتح العربي بسنوات قليلة، مرحلة من الفوضى والاضطهاد.



قلعة ودير في قلب صحراء سيناء



دير القيامة

المجامع المسكونية

شهدت الكنيسة المسيحية منذ أوائل عهدها خلافات مذهبية خطيرة تحكّمت في توجيه التيارات السياسية، بل في تغيير مجرى الاحداث التاريخية، خاصة في القرنين الرابع والخامس للميلاد.

والمشكلة الاساسية التي قسمت المجتمع الروماني إلى قسمين، وأثارت البغضاء الدينية والسياسية لمدة قرنين واكثر كانت المشكلة التي أثارها كل من آريوس واثناسيوس حول تحديد العلاقة بين المسيح الابن والاله الآب. فقال آريوس، وهو كاهن اسكندري، بأن المنطق يفرض وجود الأب قبل الابن، ولا يمكن للابن ان يساوي الأب في الجوهر والقدسية والازلية، والاّ يُتّهم المسيحيون بعدم التوحيد وبعبادة الهين.

وقال اثناسيوس بأن فكرة الثالوث المقدس تحتم بأن يكون الابن مساوياً للاله الآب تماماً...

إلى جانب هذه المشكلة الاساسية برزت بدع وهرطقات اخرى، منها بدعة نسطوريوس اسقف الاسكندرية الذي رفض ان يدعو العذراء والدة الاله. ثم كانت الحركة المعادية للأيقونات وغيرها...

ان هذه البدع كانت تستدعي عقد مجامع دينية ترمي إلى الاصلاح واستئصال الوثنية والدفاع عن العقيدة ضد الأفراد وتجاوز السلطة، أو للبحث في امور الكنيسة وتنظيم شؤونها...

وكانت المجامع على انواع، منها المحلية، ومنها العالمية المسكونية، ثم الاقليمية التي يرأسها الرئيس الديني، واهم هذه المجامع الكنسية هي المجامع العامة المسكونية، وقد بلغ عددها عشرين مجمعاً خلال الفترة الممتدة بين عامي ٣٢٥م و ١٨٧٠م، من مجمع نيقيا الاول حتى مجمع الفاتيكان.

والكنيسة الشرقية قد اعترفت بسبع منها حتى انفصالها سنة ١٠٥٤م.

ومن أشهر هذه المجامع اربعة هي:

مجمع نيقيا الاول عام ٣٢٥م.

مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١م.

مجمع افسوس سنة ٤٣١م.

مجمع خليقدونيا سنة ٤٥١م.

اوريجانس (١٨٥ - ٢٥٠م)

المجمع المسكوني الخامس في القسطنطينية عام ٥٥٣م.

«كان اوريجانس شعلة ذكاء نادر، وامتاز بجلده وجده في البحث والتأليف والتعليم حتى اصبح في بادىء الأمر منارة في الكنيسة، ومن اشهر مفسري الكتاب المقدس. ولكنه قد تطرَّف في الاعتماد على عقله الجامع لشتات المعارف، وبالغ في تتبع سبل الفلاسفة ولا سيما افلاطون منهم، غشت على عقله غيوم كثيفة من الضلال ولا سيما لرغبته في الاّ يترك شيئاً في الكتاب المقدس دون ان يفسّر تفسيراً يقبله العقل، فأمست كتاباته وتعاليمه مصادر يعتمد عليها عدد غفير من المبتدعين الذين أبسلتهم الكنيسة مع تعاليمهم.

أما أشهر آرائه التي حرمها - وحرم صاحبها - المجمع المسكوني الخامس فهي التالية:

١ - ان الابن الوحيد لا يمكن ان يشاهد الآب ولا الروح القدس يستطيع ان يرى الابن.

٢ - ان الشيطان وكل الأبالسة سيعودون في النهاية إلى حالتهم الملائكية السابقة، وان جهنم ليست ابدية.

٣ - اعتبر ان كلمة الله الاقنوم الثاني أدنى من الآب، وان الروح القدس الأقنوم الثالث أدنى رتبة من الابن، وان قوة الآب اعظم

من قوة الابن، وان قوة الابن اعظم من قوة الروح القدس».

عن مجمع نيقيا عام ٣٢٥م.

رسالة المجمع المقدس المنعقد في نيقيا ٣٢٥م إلى كنيسة الاسكندرية.

«بنعمة الله إلى الكنيسة في الاسكندرية، وإلى اخوتنا المحبوبين الاكليروس والشعب الارثوذكسي في كل انحاء مصر والمدن الخمس وليبية وكل امة تحت السماء.

... فأول كل شيء بحضور الملك الحسن العبادة قسطنطين جرى فحص القضايا الناشئة عن ضلال **آريوس** واتباعه والحادهم.

فاستقر الرأي على إبساله هو ورأيه الكفري وكل افتراضاته وبراهينه الباطلة التي اندفع يتفوه بها مجدفاً على ابن الله وزاعماً انه مخلوق من العدم، وانه قبل ان يولد لم يكن، وانه كان وقت لم يكن فيه، وان ابن الله بإرادته الحرة يختار اما الرذيلة أو الفضيلة. كل هذه الاقوال والآراء قد حرمها المجمع الذي لم يحتمل سماع هذه البدعة الكفرية والحماقة وكلمات التجديف...

أما وقد انقذت عناية الله مصر من البدعة والتجديف ومن الذين تجاسروا على أثارة الشغب والانقسام بين شعب كان متمتعاً بالسلام بقي على المجمع ان ينظر في وقاحة ملاتيوس والذين سامهم من الاكليروس...

ثم اننا نعلن لكم البشرى السارة عن الاتفاق المختص بالفصح المقدس، فإن هذه القضية قد سويت بالصواب بحيث ان كل الاخوة الذين كانوا في الشرق يجرون على مثال اليهود، صاروا من الآن فصاعداً يعيّدون الفصح العيد الأجلّ الاقدس في الوقت نفسه، كما

تعيّده كنيسة روما، وكما تعيّدونه انتم وجميع من كانوا يعيدونه هكذا منذ البداية.

ولذلك فقد سرّتنا هذه النتائج المحمودة... فاستقبلوا بأوفر إكرام واعظم محبة زميلنا اسقفكم الكسندروس الذي سرنا وجوده معنا... صلوا ايضاً من اجلنا واطلبوا معنا ان يثبت كل ما ارتأينا أنه حق وصواب. فإن كل ما انجزناه انما قمنا به حسب اعتقادنا ابتغاء لرضى الله الضابط الكل وابنه الوحيد سيدنا يسوع المسيح وروحه القدوس، له المجد إلى الأبد آمين».

عن المجمع المسكوني الثالث افسوس عام ٤٣١م.

«التأم المجمع المسكوني الثالث في افسوس، وهي مدينة في آسيا الصغرى، في كنيسة تلك المدينة الكبرى، كنيسة والدة الاله مريم، وذلك في عهد الامبراطور ثيودوسيوس الثاني في سنة ٤٣١م، وكان عدد الآباء الحاضرين نحو مئتين. وكان من زعماء المجمع البارزين القديس كيرلس اسقف الاسكندرية الذي ناب عن كيلستين اسقف رومة...

وقد دعي المجمع للنظر في الدعوى على **نسطوريوس** اسقف القسطنطينية. أما سبب الدعوى المقامة عليه فشروده عن الايمان القديم متأثراً بتعاليم **ديودورس** ولا سيما في ما يختص بسر التجسد. فقد قسم المسيح الواحد إلى اقنومين وجوهرين محولاً إياه إلى مجرد كائن بشري بطبيعة كطبيعة البشر ومنفصل عن الكلمة، وإلى اله فقط بتحديد المعنى وبغير اتخاذ التجسد.

ومفاد ذلك انه قسم الابن الواحد إلى ابنين مسميّاً أحدهما ابن الله والآخر ابن العذراء. ولهذا كان يأبى أن يدعو العذراء وهي امه بالجسد - أي التي اعطت ولادة الله.

ولذلك فالمجمع المقدس حرم نسطوريوس بسبب بدعته...

فالمجمع لا يبشر بكائن بشري متألّه بل بالعكس يعترف ان الله قد تجسد... وان الكلمة صار كائناً بشرياً وعاش بالفعل معنا وبيننا كأنه ابن الانسان ليس فقط بحسب الارادة والقبول، وليس باتخاذه شخصية فحسب بل إذ قد انضمت الطبيعتان مع اختلافهما بقصد الاتحاد ونتج من اتحادهما مسيح واحد...».



أيقونة

عن المجمع المسكوني السابع في نيقيا عام ٧٨٧م.

خلاصة دفاع القديس يوحنا الدمشقي عن تعليم الكنيسة في اكرام الايقونات.

ان الله قد وضع لليهود هذه الشريعة وهذه الوصية الثانية من الوصايا العشر القائلة: لا تصنع لك صنماً أو تمثالاً منحوتاً... لأنهم كانوا سريعي السقوط في عبادة الاصنام.

أما نحن الذين أُعطيت لنا نعمة الايمان ونعمة الاتصال بالله بعد ان هجرنا البدع الخرافية وعرفنا الحقيقة فيختلف الامر معنا عن اليهود... وفوق هذا فنحن قد حصلنا من الله على مقدرة تحكيم العقل واصبحنا نعرف ما هو الذي يمكن تصويره وما هو ذاك الذي لا يمكن التعبير عنه بالصورة والرسم.

نعم ان «الله لم يره أحد» وانه ليس بالامكان التعبير عن غير المنظور **بالايقونة** ولا الوصول إلى ادراك غير المدرك، ولا رسم الذي لا يعرف طوله ولا عرضه ولا حجمه لأنه غير محدود... من البديهي مثلاً انك عندما تشاهد من لا جسم له قد اتخذ جسداً لأجلك أن تصور شكله البشري، وعندما ترى غير المنظور صار منظوراً بالجسد ان ترسم

بالايقونة صورة من اصبح موضوعاً للنظر واللمس والسمع، وعندما ترى «الله آخذاً صورة عبد وصائراً على شبه الناس» لا تتأخر بالطبع ان ترسم على الألواح صورته ليشاهد الناس الآتون بعدك ذاك الذي تنازل وقبل ان يراه الناس. اجل ارسم تنازله الذي لا يعبر عنه بالكلام وحده. صوِّر ولادته من عذراء في مغارة، ومعموديته في الاردن، وآلامه وصلبه الخلاصي، ودفنه وقيامته وصعوده إلى السموات. ولا تبخل أن تنقل هذه الامور إلى اخوانك بني الانسان إما بالكلام وإما بالرسم ليحيّوا من رسم عليها ويسجدوا للشخص الممثل فوقها...

إن الايقونات هي وسيلة شريفة للتذكير. فكما ان الكتاب يذكّر المتعلمين الذين يطالعونه، هكذا تذكر الأيقونات الذين ينظرون اليها باحترام من غير المتعلمين، وكما ان الكلام يؤثر في السمع، هكذا تؤثر الايقونة في البصر، ويتم الادراك في كلا الامرين عقلياً».

ومما ورد في المجمع السابع اعلاه:

«... ولكننا في تكريمنا وسجودنا للايقونات لا نسجد للألوان ولا للخشب أو غير ذلك من المواد المصنوعة منه، ولكننا نمجد بالتكريم الكائنات المقدسة الذين تمثلهم هذه الايقونات فنتصور حضورهم بأذهاننا كأننا نراهم بأعيننا... واننا نطلب المعونة من الله ومن القديسين، ولكن ليس باسلوب واحد... اننا نتوجه إلى الله قائلين بكل خشوع: ارحمنا واصغ الينا يا رب. واما القديسين فنبتهل اليهم قائلين: تشفعوا فينا وصلّوا لأجلنا..»



مؤتمر وادي النطرون



مؤتمرات ومجالس الكنيسة المصرية اليوم.

اولاً: المؤتمر اللاهوتي المسكوني في وادي النطرون (مصر) بين ٢٦ و ٢٨ تشرين الاول عام ١٩٩١ .

بين ٢٦ و ٢٨ تشرين الاول ١٩٩١، اجتمع في دير الأنبابيشوي في وادي النطرون بمصر حوالي ثمانين لاهوتياً من الكنائس الأرثوذكسية الشرقية والكنائس الكاثوليكية، في مؤتمر لاهوتي مسكوني.

اشترك في المؤتمر قداسة البابا شنوده الثالث، بطريرك الاسكندرية للاقباط الارثوذكس، وغبطة البطريرك اسطفانوس الثاني غطاس، بطريرك الاسكندرية للأقباط الكاثوليك، وأساقفة وكهنة وعلمانيون من الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ومختلف الكنائس الشرقية، ومن الكنائس الارثوذكسية الشرقية: القبطية والسريانية والأرمنية.

تكلم أولاً قداسة الأنباشنوده الثالث، فأوضح ايمان الكنيسة القبطية الارثوذكسية في طبيعة المسيح. وفسّر قول القديس كيرلس الاسكندري عن طبيعة السيد المسيح «الطبيعة الواحدة المتجسدة للاله الكلمة»، مركزاً على ضرورة تأكيد الوحدة في شخص السيد المسيح وفي طبيعته المتجسدة. فطبيعة المسيح هي طبيعة واحدة مكوّنة من طبيعتين: طبيعة الهية وطبيعة انسانية، دون امتزاج ولا انقسام، وذلك على مثال الانسان الذي هو كائن واحد وطبيعة واحدة مركبة من نفس

وجسد. فالسيد المسيح يقوم بكل أعماله الالهية والانسانية بطبيعته الواحدة المركبة.

وعن موضوع المجامع والمجمعية في الكنيسة، تحدّث القمّص تادرس يعقوب ملطي، من الكنيسة القبطية الارثوذكسية، وأظهر الفرق الذي لا يزال شاسعاً بين الكنيسة الكاثوليكية الرومانية والكنائس الارثوذكسية الشرقية في هذا الموضوع، ولا سيما إلى عدد المجامع المسكونية وضرورتها وعصمتها والعقائد التي اعلنت في المجامع التالية لمجمع افسس (٤٣١م)، وكذلك بالنسبة إلى رئاسة بابا رومة وأوليّة بعض الكراسي الاسقفية.

لقد اتصف مؤتمر وادي النطرون بجو المحبة والاخوة والمصارحة. ونهار الاحد في ٢٧ تشرين الاول حضر جميع المشتركين في المؤتمر الليترجيا الالهية التي احتفل بها رهبان الدير الملاصق للمركز البطريركي.

وفي ختام المؤتمر وزع قداسة الأنباشنوده الثالث على الجميع مجموعة كتبه وميدالية تذكارية للمؤتمر.

ثانياً: مجلس بطاركة الشرق الكاثوليك.

بين ١٧ و ٢١ شباط ١٩٩٢، عقد بطاركة الشرق الكاثوليك مؤتمرهم الثاني في القاهرة، في ضيافة غبطة البطريرك الأنبا اسطفانوس الثاني غطاس، بطريرك الاسكندرية للأقباط الكاثوليك.

شارك في هذا المؤتمر غبطة السيد البطريرك مكسيموس الخامس حكيم، بطريرك انطاكية وسائر المشرق والاسكندرية وأورشليم، ومار اغناطيوس انطون الثاني حايك، بطريرك السريان الانطاكي، ومار نصرالله بطرس صفير، بطريرك انطاكية وسائر المشرق للموارنة، ومار روفائيل الاول بيداويد، بطريرك بابل على الكلدان، ويوحنا الثامن عشر

كاسباريان، بطريرك الأرمن الكاثوليك، وميشيل صباح، البطريرك الاورشليمي للاّتين.

وقد بحث المجلس في موضوع الحضور المسيحي في الشرق ودوره ورسالته في العالم العربي من خلال ولائه له والتزامه قضاياه المصيرية العادلة. ورأى المجتمعون انه من واجب المسيحي أن يسهم في بناء الاخوّة الصادقة بين جميع ابناء الوطن الواحد، ودعوا جميع المؤمنين إلى المساهمة في جميع المجالات العامة ليصبحوا مؤمنين صادقين ومواطنين مخلصين؛ وقد أعدّ آباء المجمع رسالة راعوية توجه إلى المؤمنين في مناسبة عيد الفصح المجيد. كما استمع أصحاب الغبطة إلى مجموعة من المحاضرين نقلوا اليهم هموم الشعب وتطلعاته من خلال مواضيع العدل والسلام والتنمية والعمل الثقافي والحوار بين الأديان.

واستقبل المؤتمر الأنبا شنوده الثالث، بابا الاقباط الارثوذكس بصحبة وفد من الكنيسة القبطية. وتداولوا في اوضاع الكنيسة، وانبثق عن مداولاتهم مجموعة من التوصيات، سيعمل اصحاب الغبطة على متابعتها وترجمتها إلى واقع ملموس. وتتعلق هذه التوصيات بقضايا الحوار الاسلامي - المسيحي والتنمية وغيرها من المجالات...

وقد ألقى غبطة البطريرك اسطفانوس الثاني كلمة الافتتاح في ١٨ شباط ١٩٩٢، وهذا بعض ما ورد فيها:

«... أهلاً بكم في مصر، الوطن الغالي على قلب كل عربي. اهلاً بكم على الارض التي لجأ اليها السيد المسيح مهاجراً وجعل منها وطناً له، والتي كانت دوماً أرض السلام والأمان، وفي رحاب الكنيسة الاسكندرية التي استقبلت المسيحية في شخص مار مرقس الذي أشعل النور المسيحي في هذا الوطن منذ بداية المسيحية، فسرى الايمان في قلوب المصريين المؤمنين بالتوحيد منذ آلاف السنين...

أهلاً بكم في الكنيسة المصرية التي عبرت القرون والصعاب، ولم تزل متوهجة بقداسة تاريخها، وحماس وبهجة حاضرها، ورجاء وثقة مستقبلها، الكنيسة المصرية التي حفظت على ارض المشرق العربي اكبر تجمع مسيحي، وكان لها رسالة مسيحية شرقاً وغرباً...

إن الحضارة العربية الرائعة التي ازدهرت وأنارت طوال العصور المتتالية، وكانت نقطة انطلاق للحضارة المعاصرة، هذه الحضارة العربية بناها المسلمون والمسيحيون معاً: لم يتخلّف اجدادنا عن ان يكونوا عوناً وسنداً في المجتمع العربي، لم يتخلف تراثنا عن ان يكون بعضاً من التراث العربي والثقافة العربية، لم يشعر أجدادنا أنهم غرباء أو أنهم مهاجرون، بل ان الحضارة العربية صهرت المسلمين والمسيحيين، فكان المجتمع العربي، وبخاصة المجتمع المصري، عنصراً واحداً وتاريخاً واحداً...

إن الكنيسة المصرية في الوطن العربي بوجه عام وفي مصر بوجه خاص لم ينقطع وجودها في عصر من العصور، لقد امتزج ايمانها بهذا الوطن، وعاشت فيه نواة سلام وعلم وحضارة... وجودنا يؤدي رسالة متمثلة في كنائسها ومدارسها وأنشطتها...

مرة اخرى، اهلاً وسهلاً بكم في مصر، في رحاب كنيسة الشهداء، كنيسة الاسكندرية».



مخطوط قبطي: صفحة ناقصة من انجيل قبطي، القرن الثاني عشر م
(تمثل العماد في نهر الاردن)

تعريب مصر القبطية

أولاً: فتح مصر.

بينما كانت الجيوش العربية تتقدم شرقاً نحو العراق وبلاد فارس بقيادة سعد بن ابي وقاص، كانت جموع اخرى منها تتقدم غرباً نحو مصر بقيادة عمرو بن العاص.

لم تكن الحملة العربية على وادي النيل مجرد غارة أو غزوة عابرة، إنما كانت تندرج في نطاق الحملات المنظمة، ذلك ان نفوس العرب قد تطلعت صوب مصر منذ أوائل الفتح، نظراً لما تتمتع به من موقع جغرافي خطير، فهي تطل على بلاد الشام والحجاز من جهة الشرق، ونافذة على سائر الساحل الافريقي الشمالي من جهة الغرب، إلى جانب خصبها الذي جعلها اهراء القسطنطينية لمدة طويلة.

كانت مصر اذن معروفة جيداً عند العرب عن طريق التجار الاقباط الذين كانوا يذهبون اليهم بثراء بلادهم الواسع. لذلك خطط العرب لاحتلالها.

سلكت الجيوش العربية بقيادة عمرو بن العاص تلك الطريق القديمة التي سار عليها رعمسيس الثاني وتحتموس وقمبيز والاسكندر وانطوخيوس ونابليون وابراهيم باشا وغيرهم... وهي الطريق الدولية في العالم القديم الموصلة بين اهم مراكز حضاراته: مصر وسورية وعيلام وما

بين الرافدين... وبعد ان اجتاز عمرو بجيوشه العريش، وصلوا إلى «بيليزيوم» - الفرما - وهي حصن على الساحل، ومعظم سكانه من الاقباط، فوقعت المدينة في ايديهم بعد حصار استمر حوالي الشهرين، قاتل اثناءها الروم والاقباط قتالاً شديداً. وبعد الفرما سار العرب إلى «بلبيس»، ومنها إلى «هليوبوليس» - عين شمس - فاستسلمت حاميتها القبطية، واعطي افرادها الامان على ارواحهم وأموالهم.

ومنها توجه العرب إلى حصن «بابليون» حيث تصدى لهم الروم والأقباط، لكن الحاكم الروماني المقوقس دخل في مفاوضات مع عمرو بن العاص انتهت إلى هدنة، ثم إلى اتفاقية في عهد الامبراطور البيزنطي قنسطانس (٦٤٢ - ٦٦٨).

وبعد ذلك استولى العرب على الفيّوم في وسط مصر، وقتلوا القائد القبطي الشهير يوحنا. لكن الاقباط تصدوا لهم بعنف في قرى منطقة الدلتا مثل طوخ وسلطيس ودمسيس وقرطسا ومصيل وبلهيب ودمياط ودميرة وأشمون وتنيس. ولم يستطع العرب الانتصار عليهم الاّ بعد أن اعملوا حرقاً بهذه القرى، وسبوا أهلها.

والواقع ان المقاومة القبطية للعرب تدل على انهم، كشعب حر، لم يريدوا أن ينتقلوا كسلعة إلى العرب بعد الأغارقة والرومان، وهم الذين منذ اعتناقهم المسيحية مدفوعين بروح قومية تتمثل في اللغة والأدب والفن القبطي التي كانت تعبر عن شخصية مصر القديمة.

واستمر أهل الاسكندرية الاقباط يقاومون العرب المسلمين، لدرجة ان الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب استاء لأن حصارها قد طال.

لكن لما وقّع المقوقس الاتفاقية مع العرب أذعن الاقباط، واتهموه

بأنه سلّم مصر للمسلمين، وارادوا أن يرجموه بالحجارة. ومع ذلك ظلت مصر تقاوم بعد عام ٦٤٢م اثني عشر عاماً، وكان العرب، فيما بعد، يتصرفون بحذر شديد، ويخافون من انتفاضة الاقباط في أي وقت.

وأسوة بالجابية في الشام، وبالبصرة والكوفة في العراق، ونزولاً عند رغبة الخليفة عمر، انشأ العرب لهم مدينة الفسطاط قرب حصن بابليون، اتخذها الامير الذي أقامه الخليفة عمر مقراً. وقد سميت الفسطاط «مصر» لكونها مدينة للعرب على الحدود، وقد تحولت إلى مدينة عظيمة، وعرفت بمصر القديمة بعد أن بنى الفاطميون القاهرة عام ٩٦٩م.

وبنى فيها عمرو أيضاً «مسجداً» مكان احدى كنائس الاقباط، ما زال يحمل اسمه إلى اليوم.

ثار الأقباط عدة مرات على حكامهم العرب، خاصة في عهد الامويين الذين اعتبروا أن مصر قد فتحت عنوة، وأن أهلها عبيد، فلهم - اي للأمويين - أن يزيدوا عليهم ما يشاؤون من المال. كما حصلت ثورات في عهد الخليفة العباسي المأمون الذي اضطر ان يحضر بنفسه على رأس قوة إلى مصر للقضاء على ثورة الاقباط التي اشتعلت عام ٨٣١م، فقتل الرجال وسبى النساء والاطفال. ومنذ ذلك الحين أخلد الاقباط إلى السكينة، ولم تقم لهم قائمة. وبدأت تظهر شخصية مصر الاسلامية، خاصة في عهدي الطولونيين والاخشيديين، إلى ان اصبحت مركزاً للخلافة الشيعية في عهد الفاطميين، وللدولة السنية في عهد المماليك.

أما بلاد النوبة، فلم يقصد عمرو بن العاص احتلالها، انما غزاها إشعاراً لأهلها باحتلال العرب لمصر حتى لا يهاجموا صعيدها، وربما لتأديبهم بسبب مساعدتهم للأقباط في موقعة عين شمس، ومن ثمّ عقد

معهم هدنة.

وقد ترتب على عقد هذه الهدنة ان ازداد نفوذ الكنيسة القبطية في النوبة - القائلة بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح - إزاء المذهب المسيحي الرسمي، القائل بالطبيعتين الالهية والبشرية.

واستمرت غالبية سكان بلاد النوبة على الديانة المسيحية حتى القرن الرابع عشر للميلاد، إلى ان ارسل اليها المماليك جيوشهم، فتحولت إلى الديانة الاسلامية.

ثانياً: التعريب الثقافي - الفكري لمصر.

تلا الفتح العربي لمصر حركة تعريب دامت حوالي خمسة قرون، وقد اتخذت الطابع الطوعي حيناً والقسري احياناً، وتمثلت بجملة متغيّرات كبرى أهمها:

١ - الهجرات العربية إلى مصر، واستيطان الجماعات العربية الدائم فيها.

٢ - اعتناق المصريين الاقباط للدين الاسلامي.

٣ - التحوّل عن اللغة القبطية، وتعلم العربية.

المتغيّر الاول: الهجرات العربية إلى مصر، واستيطان الجماعات العربية الدائم فيها:

قبل الفتح العربي لمصر، شهدت البلاد ومنذ القديم، في عهد الاسرات الفرعونية، حركات استيطان على نطاق ضيق من قبل جماعات سامية قدمت من اطراف شبه الجزيرة العربية، سواء عن طريق اريتريا أو عن طريق صحراء سيناء.

ومع قيام الحكم الفارسي، ثم اليوناني والروماني، نمت علاقات قبطية - عربية، إن بفعل توسع الامبراطوريتين اليونانية والرومانية في

شرق البحر المتوسط، أو بفعل الازدهار التجاري للدويلات العربية التي قامت في شمال شبه الجزيرة العربية، كدولة الانباط التي تأسست في القرن السادس، وكمملكة تدمر التي ازدهرت في عهد ملكيها أذنية، ثم زنوبيا في القرن الثالث الميلادي.

إن هذه العلاقات قد سهّلت تمركز بعض القبائل العربية في الأطراف الشرقية لمصر، وفي منطقة الدلتا. كما أقطع حاكم مصر الروماني بعض مسيحيي غسّان العرب منطقة في «تنيس»، وبالقرب منهم جماعات اخرى من قبيلتي جزام ولخم المسيحيتين. هذا قبل الفتح العربي لمصر، أما بعده، فقد شهدت البلاد مرحلة جديدة نشطت فيها هجرات القبائل العربية القادمة من شبه الجزيرة العربية.

ابتدأت هذه الهجرات مع الفتح العربي في القرن السابع الميلادي، وتوالت باضطراد حتى القرن الثالث عشر الميلادي، إذ بعد هذا التاريخ لم تعد البلاد تحكم من قبل حكومات عربية. إن هذه الموجات المتتالية يمكن حصرها في موجات رئيسية أهمها:

١ - الموجة الاولى: وقد تشكلت من الجماعات العربية التي اشتركت في فتح مصر، واستقرت فيها.

٢ - الموجة الثانية: جاءت واستوطنت مصر وفق سياسة خطّط لها خلفاء الدولة الاموية لتعزيز مواقع العرب في مواجهة ثورات الاقباط، ولصد الهجمات البيزنطية على المدن المصرية الساحلية.

٣ - الموجة الثالثة: تمت على عهد الخليفة العباسي المتوكل الذي اتبع سياسة إفراغ مصر من الاقباط.

٤ - الموجة الرابعة: حصلت خلال حكم الفاطميين الشيعة لمصر لتدعيم مركزهم إزاء الخلافة السنية.

٥ - الموجة الخامسة: وقد حصلت على شكل مكافآت (اقطاعات)

من اراضي مصر قدمها صلاح الدين الايوبي إلى بعض القبائل والعشائر العربية بسبب اشتراكها إلى جانبه في قتال الصليبيين. وهي سياسة درج عليها الايوبيون، كما حصل عندما كافأوا المعنيين والشهابيين في لبنان. ومن ضمن هذه الموجة الجماعات العربية والاسلامية التي استقدمها المماليك لرد الغزوات الصليبية عن مصر في القرنين ١٤ و ١٥ . ما يمكننا قوله ان الهجرات العربية إلى مصر، واستقرار القبائل في البلاد، وارتباطهم بالعمل الزراعي، شكّلت اهم العوامل العملية التي ادت إلى صبغ البلاد بالصبغة العربية ابتداء من القرن الرابع عشر للميلاد. وهذا الارتباط بالعمل الزراعي فرض بدوره نوعاً من التكامل بين الوافدين وبين الاقباط المزارعين، ولم يعد الاخيرون يشعرون بأن ثمة امتيازات وخصائص تميز العرب عنهم.

المتغيّر الثاني: اعتناق المصريين الاقباط للدين الاسلامي:

خلال القرون الخمسة الاولى الهجرية، اعتنق غالبية الاقباط الدين الاسلامي تحت تأثير عوامل عديدة متشابكة.

فعلى الرغم من صلابة الاقباط في الدفاع عن عقيدتهم المسيحية، دخل بعضهم الاسلام طوعاً بسبب ما كان يسود الامبراطورية البيزنطية من البلبلة نتيجة الصراعات الحادة بين المذاهب، غذّتها الكراهية للحكم البيزنطي.

ان هذا الأمر كان يدركه جيداً عمرو بن العاص، فحاول استغلاله للتقرب من الاقباط، فسمح بادئ الأمر لزعماء الكنيسة بإعادة بناء الكثير مما تهدم من الأديرة والكنائس، وحتى ببناء كنائس جديدة.

واقبل بعض الاقباط على الاسلام ليحقق المساواة بالمسلمين،

وليرفع عنه وطأة التمييز في شتى المجالات، خاصة في عهد الخليفة العباسي المتوكل الذي أجبر المسيحيين على ارتداء ملابس خاصة ازدراء بهم وتحقيراً لهم. وقد أمر الخليفة بهدم كنائسهم وابعادهم عن الوظائف، ومنع أولادهم من التعلم في مدارس المسلمين.

ومن الاقباط من اعتنق الاسلام نتيجة للنظم الضرائبية التي طبقت عليهم. فمن المعروف ان الجزية كانت تؤخذ من غير المسلمين، وهي ثابتة ومعلومة لكنها مرتفعة إلى درجة لم يتحمل دفعها الاقباط الفقراء، فكان من جراء ذلك ان اعتنق الكثيرون الدين الاسلامي تخلصاً من دفع الجزية. كيف لا وقد أمر الوالي عبدالله بن عبد الملك بن مروان ان لا يدفن ميت منهم حتى يقوم أهله بدفع الجزية عنه؟

كيف لا وقد كان من يدفع الجزية في مصر يوضع حول عنقه ختم من رصاص، دليلاً على انه دفعها للعرب وهو صاغر؟!

إذن، فإن سياسة إسقاط الجزية عمن أسلموا جذبت إلى الاسلام عدداً كبيراً من الاقباط. لكن لما تشدّد الولاة في جمعها، وابطلوا هذه السياسة في مصر بسبب الحاجة إلى المال، ثار الأقباط بعنف في الصعيد الاعلى عام ٧٣٩م، وفي سمنود عام ٧٥٠م، وفي برشيد في السنة ذاتها، كما ثار أهالي البشرود وغيرهم...

اما لما ثار الأقباط ثورتهم الكبرى في الوجه البحري عام ٨٣١م، انزل بهم الخليفة العباسي المأمون هزيمة كبرى، كان من نتائجها ان اضطر الأقباط إلى اعتناق الدين الاسلامي قسراً بسبب السياسة المالية المتشدّدة التي اتبعها الخليفة على اهل البلاد.

ويبقى اكثر ما تحول الاقباط إلى الاسلام، بسبب السياسات الظالمة، كان في عهد الحاكم بأمر الله، ثم في عهد المماليك خاصة أيام

حكم السلطان بيبرس.

المتغير الثالث: التحوّل عن اللغة القبطية، وتعلّم العربية.

لم ينقض على دخول العرب أرض مصر أكثر من خمسة قرون حتى سادت اللغة العربية أوساط السكان مسلمين ومسيحيين، دون ان يتخلى الاقباط عن لغتهم.

يذهب العلماء إلى ان اللغة القبطية هي اللغة المصرية القديمة التي كان يتكلمها عامة الشعب المصري، في حين كانت الهيروغليفية تمثل لغة اهل السياسة والثقافة. وكلا اللهجتين تتحدران من جذر واحد.

ومع الزمن، اصبحت القبطية - كما عرفت في العصر المسيحي لمصر - لغة متميزة، وذلك بفضل مرونتها والتغيّرات التي طرأت على كتابتها وصرفها ونحوها. وقد تفرّعت إلى أربع لهجات رئيسية هي: البحيرية (مصر السفلى)، والصعيدية (طيبة)، والفيومية (الفيّوم)، والاخميمية (أخميم).

واكثر ما تأثر الاقباط باللغة اليونانية، بحيث اصبحت لغة العلم والمتعلمين، خاصة بعد ظهور الحواضر الاغريقية الطابع.

وهكذا يمكن اعتبار الازدواجية الثقافية وراء تراجع اللغة القبطية أمام اللغة العربية، طبعاً إلى جانب حركة أسلمة الاقباط في مصر، وفرض العقوبات القاسية على من يستخدم القبطية لغة حديث وتخاطب.

وأمام الواقع الجديد، بدأت اللغة القبطية تنسحب إلى الأديرة حيث عكف الرهبان على دراستها والكتابة بها. لكنها ظلت لغة التخاطب فيما بين الجماعات القبطية المنغلقة حتى اواخر القرن السادس عشر وأوائل السابع عشر. ولا يزال إلى اليوم أقلية قبطية تعتمدها على نطاق ضيق في بعض قرى صعيد مصر.

وفي هذا المجال، لا يمكن اغفال الدور الذي لعبه افراد طبقة الموظفين الاقباط - بعد تعريب الدواوين - وانكبابهم على تعلم اللغة العربية، وتعليمها لأولادهم حفاظاً على مراكزهم، وفتحاً للمجال أمام بنيهم.

وخلاصة القول، ان مكوّن العنف لا يكفي وحده لأن تفرض الدولة الغالبة لغتها على المغلوبين، وانما يتطلب ان تكون هذه الدولة صاحبة حضارة، وهو ما توفر للدولة العربية الناشئة. إلى جانب ان العربية قد اصبحت لغة العلم والثقافة قبل أن تصبح لغة التخاطب، وهي اللغة المرنة التي فتحت صدرها لألفاظ من اللغات الأخرى، واستغلتها في المصطلحات العلمية وفي لغة الكلام.

وكان من الطبيعي، على اثر تحول الاقباط إلى اللغة العربية، ان ازدهرت الدراسات اللغوية، ونشطت حركة الترجمة من التراث القبطي العريق إلى العربية، كترجمة سير الآباء والقديسين، وبعض كتب التاريخ. ثم لم يلبث الاقباط أن وضعوا نتاجهم الفكري والثقافي باللغة العربية، فرفدوا بذلك الحضارة العربية.

وهكذا أدت حركة التعريب - تعريب المجتمع المصري - إلى مزيد من التفاعل الحضاري بين ثقافة العرب الفاتحين وثقافة الاقباط اهل البلاد. هذا التفاعل ساهم ولا شك في خلق مجتمع مصري قوامه المسلمون والاقباط، وهو مجتمع ظل يتميز بدرجة عالية من التماسك حتى شابته بعض الشوائب على ايدي الجماعات الاسلامية المتطرفة في الآونة الاخيرة.



نسيج قبطي (ثوب كنسي) القرن السادس م.

الاقباط في عهدي المماليك والعثمانيين.

أولاً: في عهد المماليك.

مع المماليك اصبحت مصر في ظل دولة اسلامية لا تحكمها سلالة عربية.

تميز هذا العهد بالتحول نحو نمط الدولة الاقطاعية العسكرية، مما أدى إلى دمار المشتركات القروية الزراعية، وهرب المزارعين وهلاك معظمهم، إن بفعل هذا النظام الاقطاعي الجديد، أو بفعل المجاعات المتعاقبة وانتشار الامراض كالطاعون وغيره...

وعلى مستوى الحكام وأركان الحكم، شكّل المماليك طبقة مميزة منغلقة على نفسها، وقامت بينها وبين المصريين، مسلميهم وأقباطهم، حواجز عميقة من اللغة والعرق والثقافة والتقاليد...

في ظل هذه الدولة المملوكية، عاشت غالبية الاقباط العظمى حياة بائسة، وهي التي تنتمي إلى الفلاحين وإلى الفئات الفقيرة.

لكن برزت فئة من أقباط الدواوين وكبار الموظفين، لعبت دوراً مهماً في الادارة المالية للبلاد. وقد تمكّن افرادها، بحكم مواقعهم هذه، من جمع الثروات الطائلة، وصار لبعضهم مكانة تعلو مكانة كبار المسلمين في مصر.

ومع ازدياد عدد المتعلمين من المسلمين - بفضل الازهر

والكتاتيب - تطلع هؤلاء إلى ان يكون لهم نصيب في أجهزة الدولة، وأن يحلّوا محل الاقباط المسيحيين؛ ومن اجل تحقيق هذه الغاية، راحوا يثيرون النقمة الاسلامية على الاقباط عامة.

وهكذا كان كلما تفجّر السخط على شكل انتفاضات، غالباً ما تقترن باعتداءات على الاقباط دون تمييز. وكان بعض السلاطين المماليك يتغاضى عن هذه الاعمال، واحياناً يشجعها، وذلك خوفاً من ارتداد السخط الشعبي عليهم.

واخطر حادثة حصلت في هذا العهد، هي تلك الفتنة الطائفية، في أيام حكم السلطان محمد بن قلاوون عام ١٣٢٢م، حين بدأت الفتنة بهدم كنيسة الزهرية (بمصر القديمة)، وتطورت إلى هدم أربع وخمسين كنيسة في جميع انحاء البلاد. واشتعلت النيران في عدد من أحياء القاهرة، وحصلت مجازر رهيبة كان ضحيتها عشرات الرهبان الاقباط ومئات المسيحيين. وكان من نتائج هذه الأحداث أن اجبر السلطان وولاته جماعات كثيرة من الاقباط على اعتناق الديانة الاسلامية.

بالاضافة إلى هذه المؤثرات الداخلية، لعبت الحروب الصليبية وعلاقات مصر الخارجية دوراً في العلاقات الداخلية بين المسلمين والاقباط.

فالحروب الصليبية التي دامت حوالي القرنين من الزمن (١٠٩٦ - ١٢٩١)، والتي تواصلت متقطعة بعد هذا التاريخ، على شكل حملات طالت مدن مصر الساحلية، قد ايقظت روح الجهاد المقدس في نفوس المسلمين. وهكذا ازداد التعصب الديني ضد الاقباط في مصر، إذ لم يسلموا لا من الدولة الايوبية ولا من دولة المماليك بعدها، ولا حتى من المسيحيين الغربيين. فلما وقعت مدينة دمياط مثلاً بيد الملك لويس

التاسع ملك فرنسا عام ١٢٤٩، عيّن عليها كاهناً كاثوليكياً، متحدياً بذلك الكنيسة القبطية الوطنية. واكثر من ذلك فقد أجرى لأولاد هذه المدينة الاقباط التعميد (التنصير) مرة ثانية وفق العقيدة الكاثوليكية...

كما شكلت العلاقات المصرية - الحبشية، والمصرية - النوبية المتوترة عوامل ضغط شديد على الكنيسة القبطية، خاصة كلما كان ملوك الحبشة يذكّرون المماليك بأن النيل ينبع من بلادهم، وان باستطاعتهم حجب مياهه عن ارض مصر، أو كلما ذكّروا الحاكم المصري بأن يعامل الأقباط بمثل ما يُعامَل به المسلمون في الحبشة.

ولما أحسّ الاقباط، وسط هذه الأجواء المضطربة، ان الحروب الصليبية قد أثارت عليهم غضب المسلمين، ونتيجة ليأسهم من حياة مسالمة آمنة، فقد تحوّل بعضهم إلى الديانة الاسلامية، كما آثر البعض مغادرة مصر إلى فرنسا أو إلى الدوقيات الايطالية.

ثانياً: في عهد الدولة العثمانية.

عام ١٥١٦، انتصر الاتراك العثمانيون على المماليك في معركة مرج دابق قرب حماه ودخلوا سورية. وفي العام التالي - ١٥١٧ - احتلوا مصر، وحوّلوها إلى ولاية تابعة للامبراطورية العثمانية، يحكمها والٍ يعينه الباب العالي بموجب فرمان.

ولم يعرف في هذه المرحلة أي دور اداري أو مالي يذكر للاقباط.

ولما طبّقت الدولة العثمانية في مصر، كما في سائر انحاء البلاد، «نظام الملّة»، تراجع الأقباط، بمقتضاه، كطائفة دينية أو «ملّة» أمام تطور وتوسع طوائف أخرى أو «ملل» كاليهودية والكاثوليكية التي تعاملت مع مفهوم الملّة على انها أقلية، بشكل يخدم اهداف التوسع الاوروبي في السلطنة العثمانية، وذلك منذ اواخر القرن السابع عشر، ومع ما يعرف

بالمسألة الشرقية.

لم يتعامل الاقباط مع نظام الملة بهذين المفهوم والمدلول السياسيين. كما لم ينجح المرسلون الفرنسيسكان، الذين دخلوا مصر مبشرين عام ١٦٨٤، في استمالة الاقباط الارثوذكسيين الاّ بأعداد قليلة. وأيضاً لم تنجح المساعي المتكررة، في منتصف القرن الثامن عشر، التي سعى اليها الكرسي الرسولي في روما من اجل استمالة البطريرك القبطي مقابل حماية الاقباط في مصر.

وعلى صعيد آخر، لم يسلم الاقباط من المظالم التي مارسها الفرنسيون اثناء الحملة الفرنسية على مصر، أو العثمانيون بعدها. فجيش نابليون قد اصطدم بالاقباط اثناء زحفه على القاهرة، فما كان من بونابرت الاّ ان سجنهم في القلعة، وأجبر بعضهم على العودة إلى ارتداء الملابس الخاصة، كما كان يفعل بهم الفاطميون.

كما ان في الايام الاخيرة من الحملة الفرنسية، ونظراً لمواقف بعض الاقباط المؤيدة والداعمة للقائد الفرنسي «كليبر»، تعرض الاقباط للمذابح عندما دخل الجيش العثماني القاهرة، حين راح يحرّض المسلمين على قتل المسيحيين وتلف مقتنياتهم.

وخلاصة القول، ان الاقباط، وحتى نهاية القرن الثامن عشر، لم ينهجوا نهج الاقليات الاخرى التي ارتبطت بالدول الاوروبية ومصالحها، وراحت تدعو إلى إقامة أوطان قومية على أسس دينية، ورغم هذا الموقف الوطني والقومي لم ينجوا من ظلم وتعسف المسلمين المدفوعين هم ايضاً بسياسة الاتراك القائمة على مبدأ «فرّق تسد»، وهي سياسة راهنت عليها في المشرق العربي ايضاً.



إيقونة من القرن الثالث عشر م.

الاقباط في عهد محمد علي وخلفائه.

تأثر المجتمع المصري، خلال هذه الفترة، بثلاثة عوامل رئيسية:

الاول: ظهور محمد علي باشا ومحاولة بناء الدولة المصرية الحديثة.

الثاني: الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ .

الثالث: نمو الفكر القومي، وقيام حركة وطنية مصرية مناهضة للاستعمار البريطاني.

إن محمد علي باشا والي مصر، في محاولته لتحديث وعصرنة البلاد، استعان بالاقباط في ادارة الشؤون المالية، وولى بعضهم وظائف كبرى في الدولة، كما استعان بالحرفيين والصنّاع الاقباط لدفع عجلة الاقتصاد إلى الامام.

وهكذا نمت من جديد، في الريف المصري، طبقة قبطية تملكت الاراضي الواسعة، وفي المدينة، ظهرت جماعات قبطية تعاطت التجارة والصناعة والمقاولات.

واستعاد الاقباط بعضاً من مواقعهم، فبرزت عائلات لعب بعضها، فيما بعد، دوراً سياسياً على الصعيد المصري منها: غالي، مكرم، سميكة، عبدالنور، ويصا، عبيد، اندراوس، بشارة، بقطر، مقار،

والمنقبادي...

على الصعيد السياسي، لم يعمل محمد علي على اشراك الاقباط في المجالس التمثيلية التي أقامها لمعاونته في الحكم، لكن في عهد خلفائه أصبح لهم نواباً في المجالس النيابية (كان لهم نائبان من أصل خمس وسبعون عام ١٨٦٩، وأربعة نواب من أصل ثمانين عام ١٨٨١).

وعلى الصعيد القضائي، فمع الاصلاحات التشريعية والقضائية التي بدأها الخديوي اسماعيل، أصبح للأقباط - لأول مرة - قضاة ومستشارين في محاكم الاستئناف.

ومنذ عام ١٨٨٣، جرى التقليد على تعيين وزير قبطي واحد في كل وزارة، ثم ارتفع العدد إلى اثنين عام ١٩٢٤ عندما شكل سعد زغلول وزارته. وفي العقدين الاول والثاني من القرن العشرين، تولى اثنان من الأقباط رئاسة الوزارة في مصر، وهما بطرس غالي باشا (١٩٠٨ - ١٩١٠) ويوسف وهبه باشا (١٩١٩ - ١٩٢٠).

واشترك الأقباط في الاحزاب السياسية المصرية، فكان منهم اثنان في الهيئة التأسيسية لحزب الاصلاح الذي تزعمه الشيخ علي يوسف، واثنان من ابرز أعضاء قيادة الحزب الوطني الذي اسسه مصطفى كامل، وستة عشر عضواً من اصل مئة وثلاثة عشر عضواً في حزب الأمة الذي تأسس عام ١٩٠٧.

وهكذا نلاحظ ان الاقباط قد أحسوا بالأمان في عهد الاسرة العلوية (نسبة إلى محمد علي)، ففجروا طاقاتهم المكبوتة تعبيراً عن هويتهم الثقافية والفكرية، واسسوا الجرائد والمجلات الدينية والعلمية المتخصصة...

ومع انتشار افكار عصر الانوار الفرنسي وشيوعها في مصر،

برزت فئة من المثقفين الاقباط تأثرت بها إلى حد بعيد؛ في المقابل ظهرت مجموعة من رواد «عصر النهضة» نهلت من ذات المعين، ونادت بالجامعة المصرية إزاء الجامعة الاسلامية التي دعا إليها السلطان عبد الحميد الثاني، ودافعت عن خصوصية المجتمع المصري الذي ما هو - بنظرها - الاّ استمرار لتاريخ الفراعنة.

ان هذا الانسجام الذي بدا جلياً بين التيارين القبطي والاسلامي، لم يكن ليرضي الانكليز والاميركيين، فحاولوا بذر بذور التفرقة بين الاقباط والمسلمين، سواء بإحياء ذكريات مظالم المسلمين على المسيحيين، أو بالعمل التبشيري البروتستانتي، وبناء المدارس لاختراق مجتمع الاقباط الارثوذكسيين، واذكاء العداوة داخل الكنيسة القبطية. وهكذا، فبعد احتلال البريطانيين لمصر عام ١٨٨٢، سلكوا مع الاهالي سياستين متناقضتين:

فمن جهة وقفوا موقفاً عدائياً من الاقباط، وأقالوهم من وظائفهم بسبب مساندتهم للثورة العرابية، ومن جهة ثانية، ولخنق الحركة الوطنية المصرية، أثاروا روح العداء والضغينة بين الاقباط والمسلمين.

وكان من نتائج هذه السياسة ان تخبطت البلاد في صراعات طائفية دامت حوالي السنتين (١٩٠٨ - ١٩١٠)، على اثر حادثة دنشواي الشهيرة. وعلى اثر هذه الاحداث الدامية، انعقد «المؤتمر القبطي» في ٦ آذار عام ١٩١١، في مدينة أسيوط، طرح خلاله المؤتمرون عدة مطالب أهمها:

١ - جعل يوم الاحد عطلة رسمية.

٢ - اعتماد الكفاءة في اسناد الوظائف العامة، دون تمييز بين عنصر وآخر، أو بين دين وآخر.

٣ - قبول أبناء المصريين في المدارس (الكتاتيب)، دون تمييز في الدين.

٤ - ضمان حقوق الاقباط في المجالس النيابية.
٥ - المساواة في الانفاق على جميع المؤسسات الدينية دون تمييز.

ورد أعيان المسلمين على الاقباط بمؤتمر انعقد في مصر الجديدة بتاريخ ٢٩ نيسان عام ١٩١١، طغى عليه روح الاستنكار والرفض لما ورد من مطالب «المؤتمر القبطي».

لكن على الرغم من الاحداث الدامية، وما تلاها من مؤتمرات، ومن معارك اعلامية على صفحات الجرائد، لم تنمُ نزعة انفصالية في صفوف الاقباط ترتبط بقوى خارجية، إنما نحت حركتهم منحى ثقافياً فكرياً تجلى في مجالي التعليم والثقافة.

ففي مجال التعليم، أدرك الاقباط أن لا مفر من إنشاء مدارس قبطية اهلية (وطنية) إزاء المدارس الاسلامية الحكومية، والمدارس الارسالية الاجنبية. وقد تطورت هذه المدارس الأهلية لتصبح مؤسسات تعليمية راقية استوعبت أبناء الاقباط والمسلمين معاً (رؤساء الحكومات: عبد الخالق ثروت، وحسين رشدي، وبطرس غالي...). ولطالما أكدّ الاقباط على أن انشاء مدارسهم ما هو الاّ جزء اساسي للتأكيد على الهوية القومية والوطنية، والحفاظ عليها.

ولما كانت هذه المدارس القبطية تخضع لإشراف الدولة، وتلتزم بما تضعه من نظم ومناهج دراسية، فقد عنيت باللغة العربية إلى جانب عنايتها باللغة القبطية. فنتج عن ذلك أدب قبطي استمد صوره وأساليبه من الادب العربي، وارتكز على الثقافة العربية.

إن هذا المؤثر الثقافي قد أدى إلى نوع من التكامل بين الاقباط والمسلمين، تجلى بوضوح خلال الثورة المصرية عام ١٩١٩، حيث اشترك الاقباط في أحداثها، والتفوا مخلصين حول حزب الوفد الذي كان

يتزعم الثورة. وقد أصبح أحدهم - مكرم عبيد - سكرتير الحزب العام في عهد رئاسة مصطفى النحاس باشا.

إن هذا الموقف الوطني للاقباط خلال ثورة عام ١٩١٩، فرض حلولاً مقبولة، كانت من قبل تصطبغ بصبغة طائفية، كمسألة تمثيلهم في المجالس النيابية (أصبحت نسبة تمثيل الاقباط تتراوح بين ٨ و ١٠٫٥٪ من مجموع اعضاء مجلس النواب).

لكن بعد ثورة عام ١٩١٩، ونظراً لتعاظم شعبية حزب الوفد وعلى رأسه سعد زغلول وطروحاته الوطنية، راح اعداء الوفد من الاحرار الدستوريين يعملون على إثارة النعرات الطائفية بين المسلمين والأقباط، فروّجوا في صحافتهم ان الاقباط يسيطرون على الوفد، ويعملون على صبغ مصر بالصبغة القبطية.

وفي الوقت نفسه، سعى القصر إلى تقليص دور الاقباط والتضييق عليهم، فحجب عنهم الوظائف العليا، ووضع شروطاً قاسية لبناء الكنائس (١٩٣٧)، ومنع المدرّسين الاقباط من تدريس اللغة العربية (١٩٤٠). إنما رغم ذلك، تميّزت هذه الفترة بجملة تيارات فكرية وسياسية، تباينت مفاهيمها وطروحاتها حول تحديد هوية مصر القومية والثقافية، وأهم هذه التيارات هي:

التيار الاول: وهو ذو نزعة فرعونية، ينطلق من أن القومية المصرية قديمة تعود إلى أيام الفراعنة، وما العهد القبطي الاّ استمرار للحضارة الفرعونية. وقد طالب دعاة هذا الاتجاه بخلق أدب قومي مصري خاص يحل محل الادب العربي العام (لطفي السيد، عبد العزيز فهمي وغيرهما...).

التيار الثاني: يدعو أصحاب هذا التيار إلى حضارة بحر متوسطية، منطلقين من ان المصريين ينتمون إلى السلالة الاوروبية، وان ثقافتهم تتصل بالثقافة الاوروبية من عهد مدرسة الاسكندرية (سلامة موسى، طه

حسين، حسين مؤنس وغيرهم...).

التيار الثالث: وهو الاتجاه الاصولي الاسلامي الذي يدعو إلى تطبيق الشريعة الاسلامية، وإلى إعادة صياغة المجتمع المصري صياغة اسلامية كاملة بحسب القرآن والسنّة (جمعية الشبان المسلمين، جماعة الاخوان المسلمين، جماعة شباب محمد وغيرها...).

التيار الرابع: وهو تيار الفكر العروبي، ومنطلقه الانتماء إلى الامة العربية الواسعة والاهتمام بقضاياها القومية والدفاع عنها. وكان للبنانيين والسوريين الذين أمّوا مصر وأنشأوا فيها الصحف والمجلات والجمعيات الدور الكبير في بروز هذا التيار (جمعية الاتحاد العربي، عبد الرحمن عزام، مكرم عبيد، توفيق دوس وغيرهم...).

وعلى الرغم من انضواء غالبية المثقفين الاقباط في التيار الرابع، وانفتاحهم على الحركة الوطنية المصرية، فإنهم ما لبثوا ان عادوا إلى الانطواء بعض الشيء نتيجة اعتداءات جماعة الاخوان المسلمين (حرق كنيسة السويس، الاعتداء على المدارس القبطية، حرق أقباط في الاماكن العامة، احداث رعب اخرى...).

وما كان أمامهم، ترسيخاً لهويتهم الثقافية والوطنية في آن، الاّ عرض جملة مطالب، وفي مناسبات شتى، وأهمها:

١ - فصل الدين عن الدولة.

٢ - تمثيلهم في المجالس النيابية بما يتناسب وعددهم.

٣ - رفع القيود عن بناء الكنائس.

٤ - السماح لهم بالتعليم الديني أسوة بغيرهم.

٥ - المساواة والكفاءة في تولي الوظائف وفي الترقيات.

٦ - اعتماد قانون مدني في أحوالهم الشخصية.

٧ - مكافحة الحكومة لكل شكل من أشكال التمييز والتفرقة.

في هذه المرحلة من تاريخ مصر - النصف الاول من القرن العشرين، واجهت الكنيسة القبطية من جهتها حركات احتجاج، إما اصلاحية في جوهرها، ومن داخل الكنيسة، أو سياسية من خارجها.

ركزت الاولى على ضرورة ترقية المستوى العلمي والثقافي لرجال الدين. ومن اجل تحقيق هذا الغرض تأسست «جامعة المحبة» و «المدارس الأحدية». واخذت هذه الاخيرة على عاتقها استقطاب الشباب الارثوذكسيين، ثم اتسع نشاطها ليشمل انشطة اجتماعية متنوعة.

وقد استطاعت حركات الاصلاح الكنسية هذه، تحقيق نهضة قوية للرهبنة، فبرز في صفوفها من خريجي المعاهد بطريرك الاقباط الارثوذكس الحالي الأنبا شنوده الثالث، ومكاري السورياني الذي اصبح اسقفاً باسم الأنبا صموئيل، والانبا غريغوريوس، والأب متى المسكين، وغيرهم...

وكان الأول - الأنبا شنوده - يرى ان الكنيسة مؤسسة شاملة مكلفة بأن تقدم حلولاً لكل المشاكل، وأجوبة لكل الأسئلة المتصلة بالدين والدنيا.

أما فيما يتعلق بالحركات السياسية، فقد برز «الحزب الديموقراطي المسيحي» و «جماعة الأمة القبطية».

وكانت هذه الاخيرة، بأساليب عملها وشعاراتها، تشبه إلى حد بعيد نظيرتها «جماعة الاخوان المسلمين»...

لكن إذا جاز التعبير، فإن الاقباط بين ثورتي ١٩١٩ و ١٩٥٢ قد انسحبوا نسبياً من ساحة النشاط السياسي. لكن ما تجدر اليه الاشارة، انهم قد استمروا مرتبطين بأهداف النضال الوطني العام، ولم يقبلوا مرةً ان يشكلوا جزءاً من الاقليات الدينية أو العرقية التي تطلب الحماية

الاجنبية، كما انهم انخرطوا في صفوف المدافعين عن عروبة فلسطين عام النكبة ١٩٤٨، وفي التصدي للعدوان الثلاثي على بلادهم عام ١٩٥٦.

نسيج قبطي، يعود الى القرن السادس م.

الاقباط بعد ثورة تموز ١٩٥٢

لما قامت ثورة تموز ١٩٥٢ بقيادة مجموعة الضباط الاحرار وعلى رأسهم عبد الناصر، وقف منها الاقباط موقفاً حذراً، يتأرجح بين المعارضة وبين الميل إلى المقاطعة السياسية، خاصة وان مجلس قيادة الثورة، وهو أعلى مستويات السلطة، لم يكن فيه ضابط قبطي واحد، في حين تمثّلت فيه جماعة الاخوان المسلمين بأكثر من ضابط.

وشهدت هذه المرحلة من تاريخ مصر هجرة متزايدة في صفوف الشباب القبطي من أصحاب الكفاءات العلمية والمهارات. كما بدأ الكثير من الأسر القبطية الغنيّة هجرتها الدائمة إلى البلدان الاوروبية والاميركية، حاملة معها جزءاً من ثرواتها.

لكن الاقباط، فيما بعد، أطمأنوا بعض الشيء، خاصة بعد سلسلة تشريعات تخص حقوق المواطنين وواجباتهم ومساواتهم، وبعد ان قاوم عبد الناصر استخدام الدين كغطاء لأهداف «الحلف الاسلامي» الذي تزعمته آنذاك المملكة العربية السعودية بمساندة الولايات المتحدة الاميركية للوقوف في وجه المدّ الناصري عربياً واسلامياً.

ومن جهتها، وكمظهر من مظاهر التكامل الوطني، فقد عبرّت الكنيسة القبطية، وعلى رأسها الأنبا كيرلس السادس، عن موقفها المعادي للكيان الصهيوني في فلسطين، وندّدت بالاعتداءات المتكررة لهذا

الكيان على الاراضي العربية، وذلك عن طريق المحاضرات والبيانات. وذهبت الكنيسة القبطية إلى أبعد من ذلك بإعلانها مشروعية الكفاح المسلّح ضد الاسرائيليين باعتباره واجباً مسيحياً.

وبقي التحفظ القبطي قائماً لأن الاتحاد الاشتراكي في مصر لم يأت بحل لمسألة التمثيل القبطي فيه، فلجأ عبد الناصر إلى تعيين عشرة اعضاء بقرار منه، كان معظمهم من الاقباط. لكن هذا الحلّ لم يرض زعماء الاقباط في حينه، وقاطعوا العمل السياسي.

وغابت الزعامات السياسية القبطية القوية عن الساحة، لأن ملء المراكز بالتعيين كان يأتي بسياسيين أقباط ضعفاء، غالباً موالين جداً. لذلك وجدت الكنيسة القبطية نفسها، وعلى رأسها الأنبا شنوده، وحدها في الساحة المصرية، وعليها ان تملأ الفراغ السياسي، وتؤثر على الجماهير القبطية.

وكان للكنيسة القبطية، في هذه الفترة، فروع ناشطة في المهجر (خاصة في الولايات المتحدة وكندا)، وكان الأنبا شنوده يتمتع بكل مقومات الزعامة، فهو متعلم وكاتب وخطيب متمكّن، إلى جانب جلده ومثابرته وذكائه.

لم تنقض سوى ستة أشهر على انتخابه للكنيسة القبطية، حين وقع الاصطدام الاول بينه وبين الرئيس انور السادات، وذلك بسبب بناء كنيسة في احدى ضواحي القاهرة، ومنع الشرطة للاساقفة والرهبان عن ممارسة الصلاة فيها بحجة أنها غير مرخصة. وانتهت الأزمة بزيارة الرئيس السادات للأزهر واجتماعه بهيئة كبار العلماء، تلتها زيارة مماثلة للمقر البابوي، حيث التقى بأعضاء المجمع المقدس وعلى رأسهم البابا شنوده.

وخرج البابا الرجل الأقوى، سيما وان الرئيس السادات كان بحاجة إلى علاقات الأول الواسعة. فالبابا شنوده وسّع علاقات كنيسته القبطية ببقية كنائس العالم، خاصة مع بابا روما، وأبدى رغبة بتحقيق الوحدة بين الكنائس.

وانطلاقاً من مصلحة مصر ورئيسها، تحرّك البابا شنوده صوب الولايات المتحدة الاميركية، فزارها في أيار عام ١٩٧٧، وقابل الرئيس الاميركي جيمي كارتر برفقة السفير المصري في واشنطن الدكتور أشرف غربال. لذلك فالزيارة ارتبطت بتوجهات نظام الرئيس السادات المنضوية تحت شعار الانفتاح الاقتصادي والسياسي، وتوثيق العلاقات بالدول الغربية الرأسمالية، وعلى رأسها الولايات المتحدة الاميركية.

وعلى الصعيد الداخلي، سعى النظام المصري إلى طرح شعارات ذات توجهات دينية، وجسّدها في الدستور، بحيث أضاف إلى المادة الثانية منه «الاسلام دين الدولة» عبارة «والشريعة الاسلامية مصدر رئيسي من مصادر التشريع».

وابتداء من عام ١٩٧٢، تصالح هذا النظام مع جماعات الأخوان المسلمين، وسمح لهم بإنشاء تنظيماتهم وممارسة نشاطاتهم، فراحوا يضغطون على الحكومة لتبنّي جملة مشاريع قوانين حملت بذور تصدّع المجتمع المصري (عدم جواز شهادة غير المسلم، فرض واجبات مالية على غير المسلمين كالجزية والخراج والعشور...).

ان هذا الموقف الرسمي الذي وقفته السلطة المصرية قد ساعد إلى حد بعيد الجماعات الاسلامية على بسط نفوذها، فتحكّمت في كثير من أوجه النشاط الاجتماعي والثقافي، مستخدمة لتحقيق ذلك شتى وسائل الترهيب والترغيب. ولما استفحل أمر هذه الجماعات، وطُرحت قضية تجاوزاتهم على مجلس الشعب شملت اعتداءاتهم الاقباط

والمسلمين من اهل السلطة على حد سواء (الشرطة والقادة...)، واغتالوا رئيس الجمهورية أنور السادات.

وعلى امتداد السبعينات، ركّز الاقباط - اكليروس وعلمانيون - على تطبيق مبدأ المساواة وتكافؤ الفرص، وعلى حماية الاسرة المسيحية من قوانين الشريعة الاسلامية، وعلى حماية المسيحيين من تصرفات الجماعات الاسلامية المتطرفة قولاً وعملاً.

ومنذ بداية الثمانينات، اتجهت حالة التوتر في مصر منحى خطيراً، بحيث ان بعض الجماعات الاسلامية المتطرفة قد أعلنت الجهاد، فواجهته الكنيسة القبطية بأنها على استعداد للدخول في عصر جديد من الاستشهاد على غرار العصر الذي شهدته في القرنين الثاني والثالث للميلاد، أيام الامبراطورية الرومانية.

وهكذا، ولأول مرة منذ بداية ما يعرف بالمسألة الشرقية برز في مصر مصطلح «الأقلية» للاشارة إلى الاقباط الذين هم أنفسهم رفضوا هذه التسمية عندما طرحت أثناء صياغة الدستور المصري الاول عام ١٩٢٣.



صورة تمثّل رفع الصليب

الخاتمة

رغم ما تعرض له الأقباط في مصر بعد الفتح العربي، خاصة في عهد الفاطميين، ورغم تحوّل غالبيتهم القسري أو الطوعي إلى الاسلامية، بقيت المسيحية متجذّرة في البلاد على نحو كاف. ولعل من أسباب صمود المسيحية هناك هي قدرة الاقباط على تأسيس كنيسة وطنية مستقلة، ارتكزت على دعائم ثقافية وحضارية تعود إلى أقدم العصور.

وعلى عكس ذلك، زالت المسيحية نهائياً من شمال افريقيا خلال القرن الثاني عشر، رغم انتشارها الواسع منذ أواخر القرن الثاني للميلاد لدرجة انه في العام ٤١١م قد انعقد مجمعاً مقدساً في قرطاجة. وقد يكون مرد زوال المسيحية من افريقيا يعود إلى الاوضاع الثقافية والقومية والاجتماعية التي كانت تسود أوساط البربر من اهل البلاد.

ويبقى السبب الأقرب إلى الواقع هو عدم استقلالية الكنيسة الافريقية وتقهقرها على الصعيدين الثقافي والفكري. فمسيحيو شمال افريقيا البربر قد اضطروا إلى مواجهة المد الاسلامي ولا ثقافة لهم تدافع عن بقائهم، على عكس النساطره. واليعاقبة والغساسنة والاقباط... لقد وقف مسيحيو افريقيا بين أيدي المنتصرين عليهم صفر الأيدي، لا يلمّون بشيء، ولا يستطيعون تقديم الخدمات للدولة الجديدة، فكان عليهم والحالة هذه ان يعتنقوا الاسلام، يحثهم على ذلك بغضهم التقليدي للسلطة البيزنطية الحاكمة. ولعل من اسباب افول نجم الكنيسة الافريقية

أيضاً هو عدم قدرة البربر على تأسيس كنيسة وطنية على غرار الكنيسة القبطية في مصر.

لكن محاولة كهذه ظهرت في افريقيا وهي «الدوناتية» (حركة دينية سعت إلى إقامة كنيسة مقدسة في مواجهة كنيسة فاسدة خاطئة). ان هذه الحركة كانت دينية في جوهرها، لكنها سياسية ايضاً تناهض السلطة، واجتماعية تطالب بحقوق المستضعفين المحرومين. ولم تكن الدوناتية بدعة بقدر ما كانت انشقاقاً، فهي لم تكن مشكلة عقيدة بل قضية شخص.

ففي مطلع القرن الرابع الميلادي، تمرد مسيحيو نوميديا على اسقف قرطاجة المعين، تحت زعامة أحد الاساقفة المدعو دوناتوس. ولما وقف الامبراطور قسطنطين، بعد عام ٣١٣م (براءة ميلان) بجانب الاسقف المعين، ظهر للعيان تضامن السلطة المدنية والكنيسة الرسمية، مما أعطى الدوناتية زخماً كبيراً، واستحالت الكنيسة الرسمية إلى كنيسة مضطهدة.

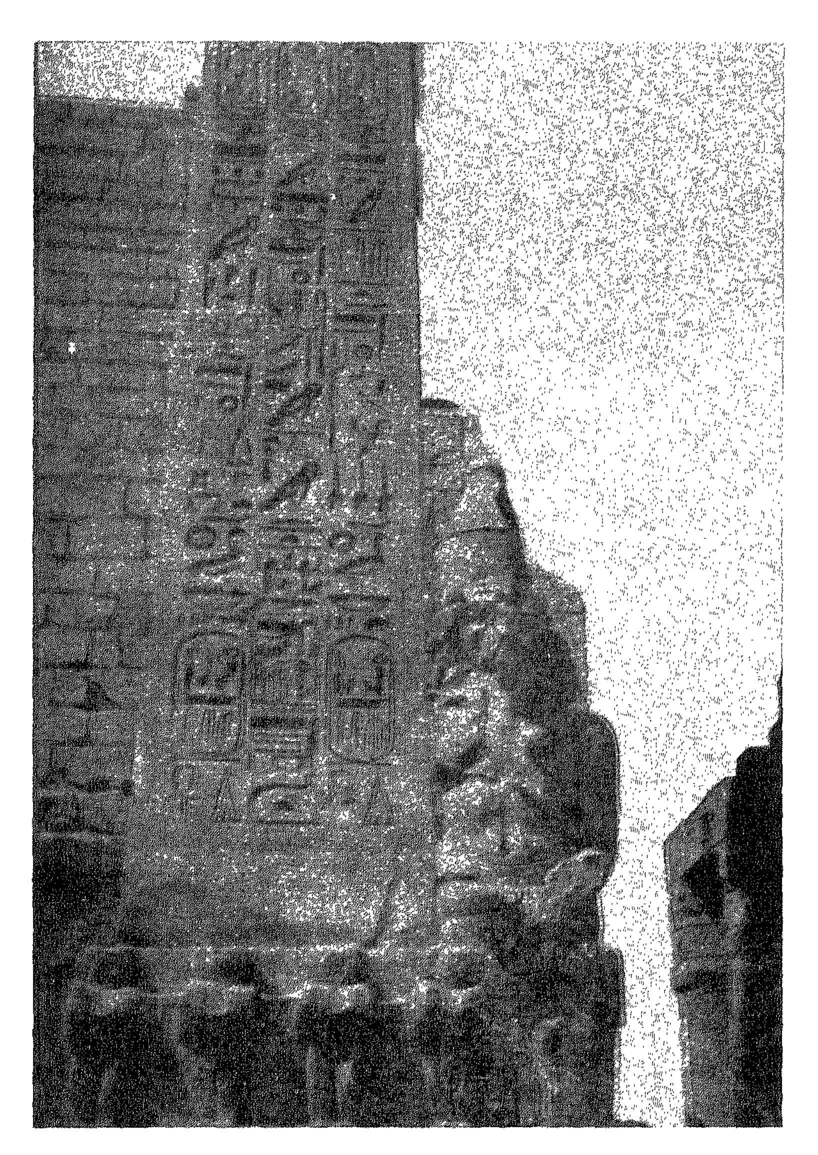
ورافق نشوء الدوناتية قيام ثورة اجتماعية في نوميديا استهدفت كبار ملاكي الاراضي المستبدين بالفلاحين الضعفاء. وما لبث ان اتحد التياران، وشملت نقمتهما الكنيسة الرسمية والسلطة الملكية وكبار الملاكين، فتضامن هؤلاء بدورهم لمكافحة الانتفاضة.

وكانت النتائج أن أنتصرت الكنيسة الرسمية، وتلاشت احتمالات قيام كنيسة وطنية قريبة من الشعب، مستقلة عن الملك ولا ترتهن له، بخلاف الكنيسة الوطنية التي اسسها الأقباط لهم في مصر (الأسكندرية).

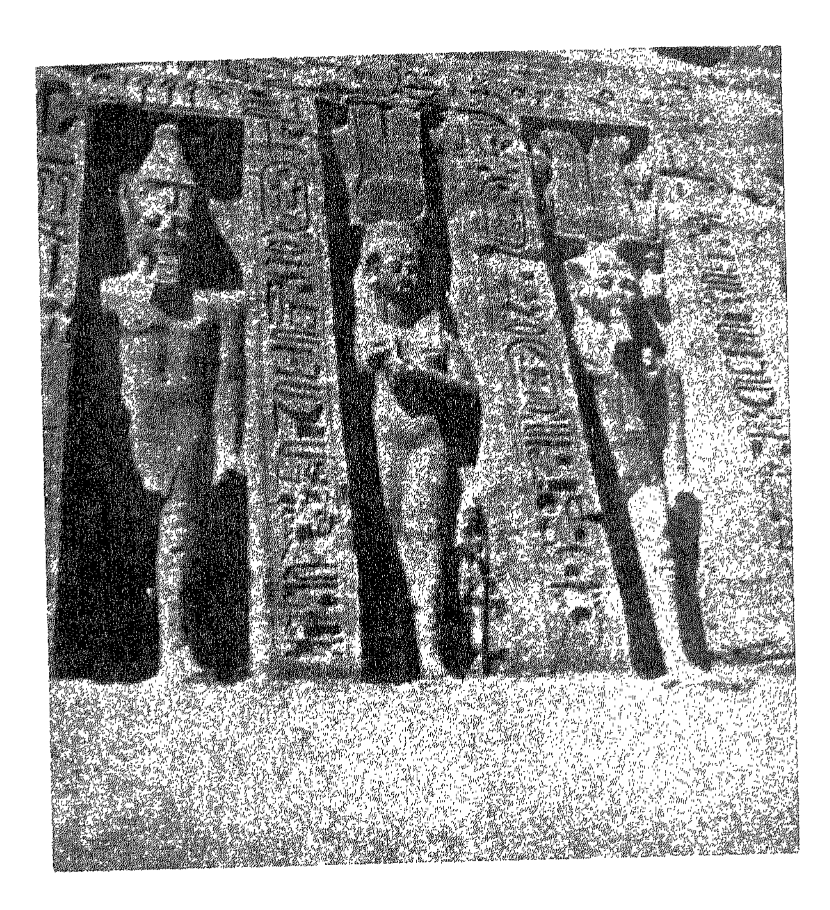
ولكن هل يمكن الأستنتاج فعلاً انه لو أنتصرت الدوناتية

لأستطاعت أن تصمد في وجه الفتح الإسلامي على غرار شقيقاتها في المشرق؟

من الصعب جداً الإجابة على هذا السؤال، لكن الأمر غير مستبعد. على الأقل لما كانت المسيحية في أفريقيا قد إنهارت بالسرعة، أو لما تلاشت كلياً وصمدت على غرار الكنيسة القبطية في مصر.



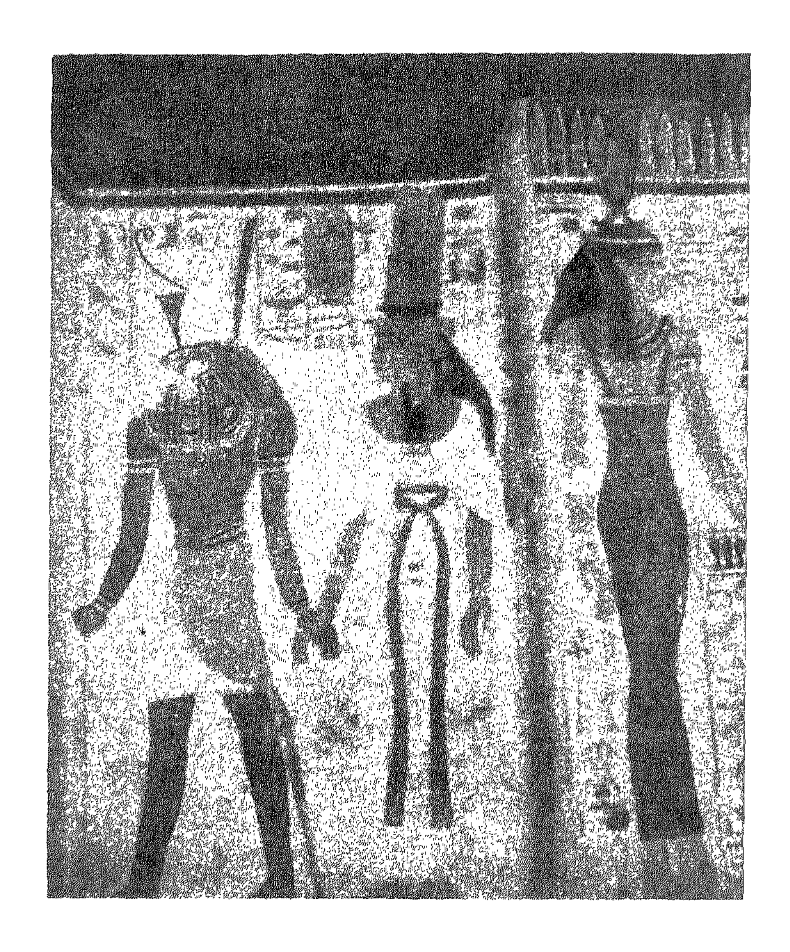
معبد الأقصر



معبد أبو سنبل الصغير



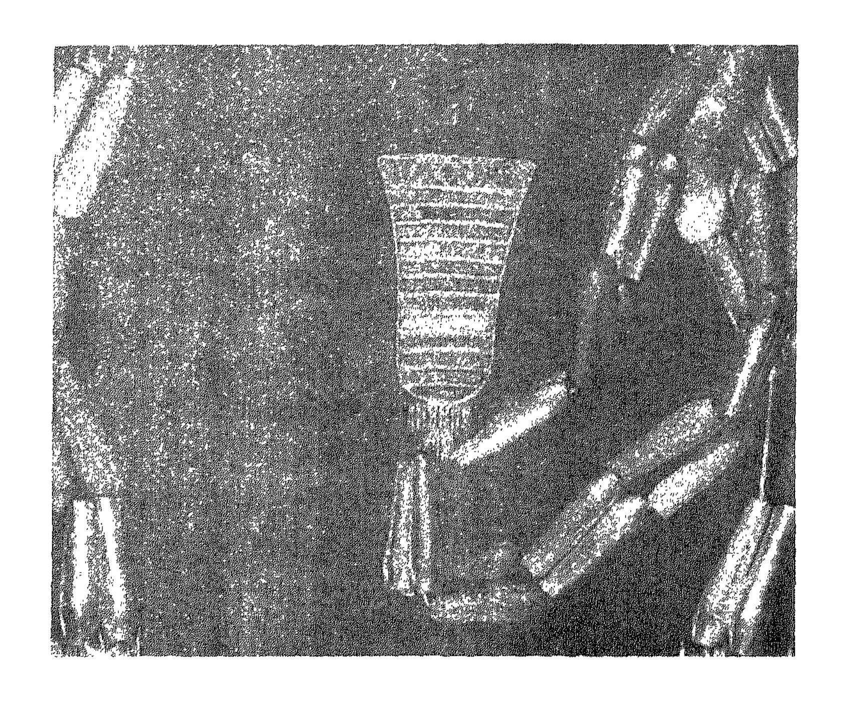
الملكة نفرتيتي (السلالة ١٨)



الملكة نفرتيتي بين الآلهة



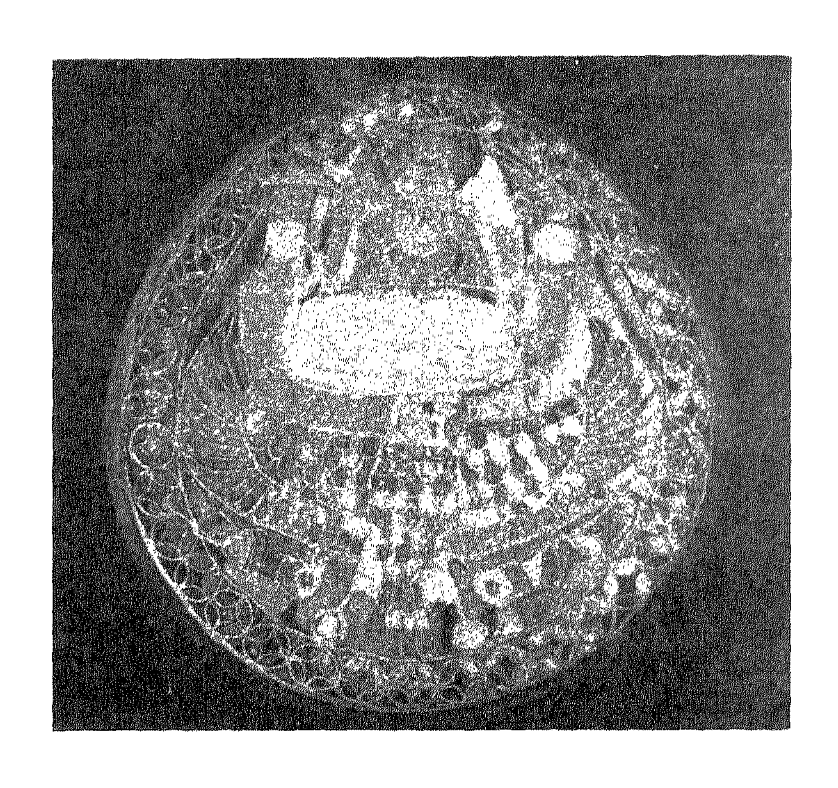
جدارية مصرية



عقد مصري مع سلسلته (ذهب مطعّم بالحجارة الكريمة)



كتابة هيروغليفية على قبر رمسيس الثاني



قلادة مرصّعة بالحجارة الكريمة، من هدايا الفراعنة لملك جبيل الفينيقي.

المصادر والمراجع

١ - البشري، طارق: المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية، القاهرة ١٩٨٠.

٢ - تاجر، جاك: أقباط ومسلمون منذ الفتح العربي إلى عام ١٩٢٢، القاهرة ١٩٥١.

٣ - حتي، فيليب، وأدوار جرجي وجبرائيل جبور: تاريخ العرب (مطول)، الطبعة الرابعة، بيروت ١٩٦٥، ج ١ و ٢.

٤ - حنا، ميلاد: نعم أقباط ولكن مصريون، القاهرة ١٩٨٠.

٥ - رزق، يونان: الأحزاب السياسية في مصر ١٩٠٧ - ١٩٨٤، القاهرة ١٩٨٤.

٦ - رستم، أسد: الروم، طالاولى، دار المكشوف، بيروت ١٩٥٥، ج ١ و ٢

٧ - شكري، غالي: الثورة المضادة في مصر، بيروت دار الطليعة ١٩٧٨.

٨ - العبادي، مصطفى: مصر من الأسكندر الأكبر إلى الفتح العربي، القاهرة ١٩٧٥.

٩ - عوض، عبد العزيز محمد: الإدارة العثمانية في ولاية سورية ١٨٦٤ - ١٩١٤، دار المصارف بمصر، ١٩٦٩.

١٠ - الفقي، مصطفى: الأقباط في السياسة المصرية، مكرم عبيد ودوره في الحركة الوطنية، القاهرة ١٩٨٥.

١١ - ماجد، عبد المنعم: التاريخ السياسي للدولة العربية، ج ١، ط ٣، القاهرة ١٩٦٥.

١٢ - نظم الفاطميين ورسومهم في مصر، ط ٢، القاهرة ١٩٧٣.

١٣ - الناضوري، رشيد: جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا، الكتاب الأول، والثالث، بيروت ١٩٦٨.

١٤ - صالح، عبد العزيز: الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق، ج ١، القاهرة ١٩٦٧.

١٥ - زيادة، نقولا: عالم العرب، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٨٤.

١٦ - هيكل، محمد حسنين: خريف الغضب، ط ٧، بيروت ١٩٨٣.

١٧ - مجموعة الشرع الكنسي، جمع وترجمة وتنسيق الأرشمندريت حنانيا الياس كساب، منشورات النور، بيروت ١٩٧٥.

١٨ - عاشور، سعيد عبد الفتاح: اوروبا العصور الوسطى، ج ١ و ٢، ط ٢، القاهرة ١٩٦٣.

١٩ - Grand Larousse Encyclopédique, Paris, Larousse 1968.

٢٠ - Roncaglia, M: Les origines du christianisme en Egypte, Beyrouth, 1966.

فهرس المحتويات













«. . . اذهبوا بعون الله، فازرعوا الارض وكلوا من خيراتها. . . واحفظوا عليها عهد جيرانكم الاقباط. إن أمير المؤمنين عمر قال لي انه سمع رسول الله يقول أن الله سيفتح عليكم مصر بعدي، فاحفظوا عهد أقباطها فهم أهلكم. . .»

«. . . فالأقباط عبّروا، قولاً وفعلاً، على انهم شركاء في الوطن والتاريخ والمصير. . .»

«. . . وما يجري في مصر الآ جزء لا يتجزّأ من المؤامرة التي يراد لها أن تفتّت البلاد العربية الى كيانات طائفية أو إثنية. . .».

